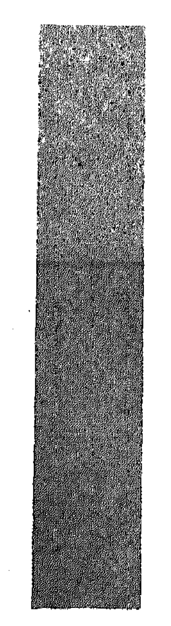


تشريح سياسى

الدكتور

فؤاد عبدالسلام الفارسى





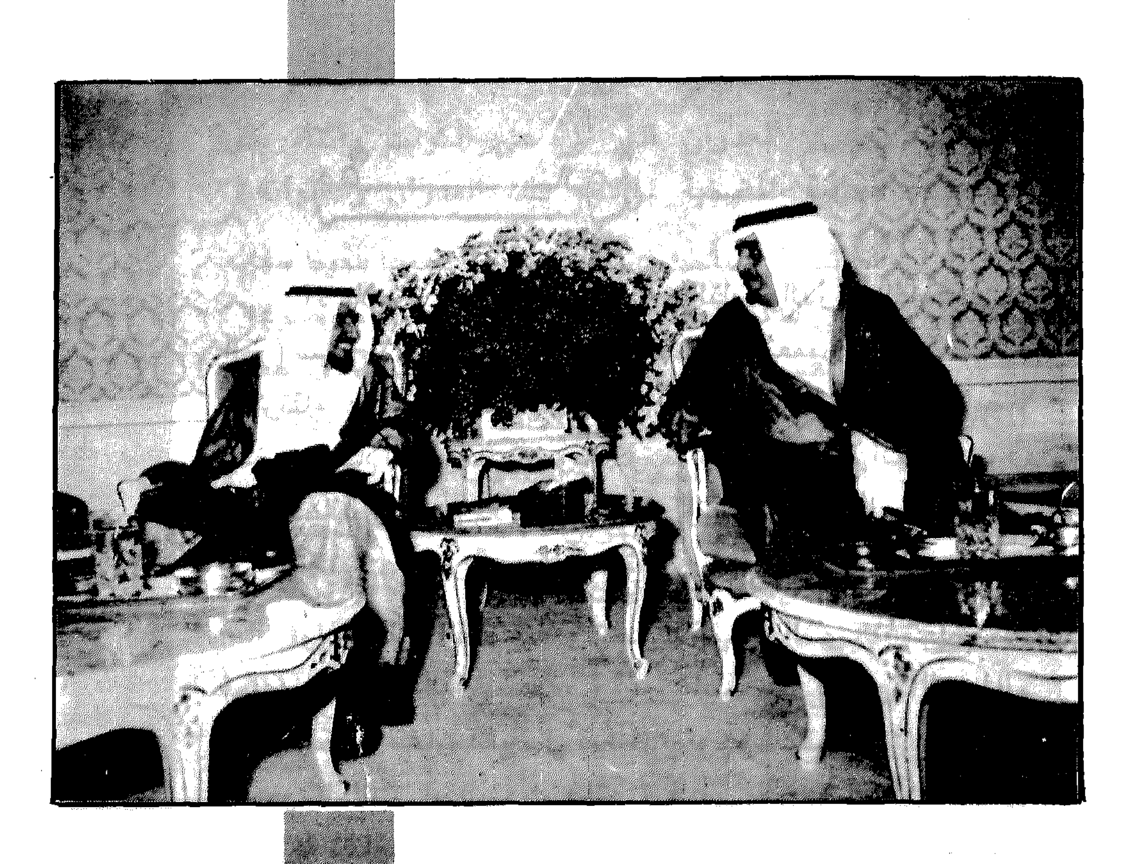
إهداء

- إلى ذكرى الراحل العظيم الملك عبد العزيز آل سعود ، مؤسس الدولة السعودية الحديثة .
- وإلى محقق مجد هذه الدولة الفتية وبانى نهضتها الذى تعلقت به قلوب أبناء شعبه بمثل ما تعلقت به آمال الشعوب المحبة للعدل والسلام . خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود . أهدى هذه المجموعة المتواضعة من المقالات التى ضمها هذا الكتيب ، والتى كنت قد نشرتها إبان أخطر محنة عرفها التاريخ العربى والإسلامى فى عصره الحديث ، والمعروفة بالاحتلال العراقى للكويت ، أو أزمة الخليج (أغسطس ٩٠ - فبراير ٩١) . وكان ذلك تعبيرا عن مشاعرى كمواطن عربى مسلم تجاه الحادث ، وإسهاما فى إلقاء المزيد من الأضواء الكاشفة على ملابساته وآثاره المأساوية . لعل فى ذلك ما يساعد على توفير الرؤية الأوضح نحو معرفة أسباب وحجم الكارثة والعمل على الحيلولة دون تكرارها . ولا يفوتنى هنا أن أؤكد قناعتى التامة بأن الفضل الأول فى تجاوز هذه المحنة (من بعد الله) ، كان للملك فهد بن عبد العزيز ، الذى يسعدنى ويشرفنى أن يتقبل هذا الأهداء ، كتعبير عن شكرى ، وتقدير لقيادته الحكيمة والشجاعة من جميع المخلصين والمحبين للسلام . سائلا الله جل وعلا أن يجزيه عنا خيرا ويسدد خطاه . إنه سميع مجيب . .

فؤاد عبد السلام الفارسى



خـادم الحرمين الشـريفين الملك فهـد بن عبد العزيز ولقاءات متجددة مع أخيه الرئيس محمد حسنى مبارك بشأن قضايا الأمة العربية والإسلامية



ولقاءات اخويه اخرى بين خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وسمو الشيخ جابر الأحمد الصباح بشان نفس القضايا المصيرية .

مقدمة

الإعلام ، كما يقولون (مثل النار والذرة والسكين . . الخ) سلاح ذو حدين ، يمكن استخدامه للتعمير كوسيلة للتقدم والارتقاء على سلم التحضر البشرى ، ويمكن استخدامه أيضا للتخريب كأداة للهدم وتشويه كل ما هو جميل فى الحياة . وفى كلتا الحالتين يكون للإعلام فاعليته وتأثيره تبعا لما يقف وراءه من امكانيات بشرية ومادية وتقنية .

واذا كان الفيصل فى تحديد الوجه الذى يستخدم من أجله السلاح (أى سلاح) هو صاحب القرار السياسى أو العسكرى ، فإن الفيصل فى تحديد وجه استخدام الإعلام هو ضمير الكاتب أو الباحث ذاته . فليس من شك أن النفس البشرية تتنازعها عوامل الخير والشر معا ، ولكن الغلبة لأحدهما تتوقف على أخلاقيات الكاتب وضميره . فكم من دولتين صديقتين متحابتين أفسد العلاقة بينهما قلم جاهل أو مغرض شرير . وكم من شقاق بين دولتين زال وانتهى بسلام وحل محله الوفاق والوئام نتيجة لكلمات مخلصة واعية خطها قلم شريف .

ومن هنا كانت مسئولية الكاتب وواجبه المهنى والأخلاقى تجاه ضميره ثم تجاه أولئك الذى أئتمنوه ووثقوا به . ومن هنا أيضا كان **إحساسى** بعبء مسئوليتى تجاه القارىء عندما كنت أكتب هذه السلسلة من المقالات ، التى نشرت بجريدة

« الأهرام » حول العدوان العراقى على الكويت وأثناء بذل المحاولات الدولية المضنية لمعالجة ذلك العدوان واحتوائه .

ذلك أن الكاتب أو الباحث عندما يتناول موضوعا معينا ، فإنه بالطبع يرتكز على عدد من الأسس والقواعد المتصلة بموضوعه . إلا أن صدام حسين ، والذى كان محور الحديث فى معظم المقالات ، خرج عن كل المعايير الانسانية والمقاييس الأخلاقية والبديهيات العقلانية والمنطقية فى تصرفاته الشاذة ، بصورة أربكت حسابات المحللين والمفكرين . اذ لم تكن لتشفع أمام جبروته وطغيانه صرخات الرضع ودموع الثكالى واستغاثة الجرحى والأبرياء . ولم يسلم من بطشه طائر أو حيوان فى البر والبحر والجو على حد سواء ، بل أنه يعد من أوائل الذين اغتالوا البيئة دون رادع من عقل أو خلق أو ضمير .

وعلى الرغم من كل ذلك . ومع أنه لا يختلف أثنان على أن جرائم صدام حسين فاقت كل خيال وبصورة ألهبَت مشاعر الغضب فى نفس كل انسان ، إلا أن أمانة الكلمة ومسئولية القلم ، فرضت على كاتب هذه المقالات أن يمارس أكبر قدر من ضبط النفس ويتوخى فى تناولها أقصى درجات التجرد والموضوعية والحياد .

والله من وراء القصد . وما التوفيق إلا من عند الله ، ،

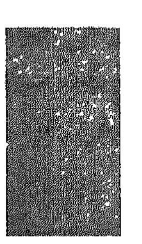
المؤلف

جريمة العصر

١



كابوس الخميس الأسود
واللاعبون بالنار



اختلفت الآراء وتعددت الاجتهادات حول فهم وتفسير الحادث الغريب الذى وقع قبل فجر يوم الحادى عشر من شهر المحرم ١٤١١ هـ الموافق للثانى من أغسطس (آب) ١٩٩٠ م عندما قام الجيش العراقى فجأة ، وفى سابقة لا يعرف التاريخ المعاصر لها مثيلا ، بغزو خاطف لدولة الكويت أتبعه بعدد من الاجراءات الأشد غرابة تمثلت فى عزل الحكومة الشرعية للكويت ومصادرة أموال وممتلكات الأسرة الحاكمة والاستيلاء على مصادر الثروة الوطنية ونهب الأموال الأهلية من المصارف والمتاجر ثم إلغاء الوجود الكويتى نفسه بدمجه فى العراق لتصبح دولة الكويت جزءا من كيانه السياسى وتقسيمها اداريا تابعا لإحدى محافظاته .

وهكذا ، ودون وازع من ضمير أو رادع من الاحساس بحق الأخوة والجوار أو خوف من الله أو احترام للشرعية التى استقرت عليها الأعراف الدولية . قام الرئيس العراقى صدام حسين ، وببساطة شديدة ، بمحو دولة مستقلة من الوجود . دولة ذات سيادة تتمتع (مثل العراق تماما) بعضوية جميع الهيئات والمنظمات الدولية .

ولقد وصف بعض المراقبين هذا التصرف الأخرق بالحمق والغباء الناجم عن جنون العظمة وخلل فى التوازن النفسى وافتقار شديد لأبجديات التفكير المنطقى السليم بما يتناسب مع مسئوليات الحكام . فيما يرى البعض الآخر أنه عمل غادر لئيم وسطو مسلح بأسلوب قطاع الطرق والارهابيين المحترفين المقترن (كالعادة) باحتجاز الرهائن للابتزاز والاحتماء خلف ظهور العزل من المدنيين الأبرياء من النساء والأطفال .

وهكذا ينقسم الرأى حول قضية الغزو العراقى للكويت بين فريق يقول بأن مدبر هذا الغزو ومنفذه شخص مأفون ومريض يعانى مركبات نقص حادة تخضع تصرفاته بغير إرادة منه لتأثير العقد النفسية . بينما يقول فريق آخر بأنه عمل إجرامى مدبر ومتعمد ومرتكب عن سابق تصور ، ولزمن يتجاوز العامين (عمر مجلس التعاون العربى) .

أما أهل الاختصاص فيرون أنه لا خلاف ولا تناقض بين الفريقين فيما لو نظرنا إلى القضية فى ضوء التكوين النفسى للرئيس الراقى صدام حسين ، آخذين فى الاعتبار أبعاد شخصيته السيكوباتية التى تجمع بين كل هذه الصفات فى وقت واحد . وبالمناسبة فلست أنا صاحب التعبير السالف الذكر ولا من أطلق هذا الحكم على الرئيس صدام حسين ، وانما الذى قام بذلك هم خبراء فى السياسة الدولية ومحللون نفسيون اهتموا بدراسة الحالة عن كثب .

إن التصرف الهمجى والسلوك البربرى المجرد من كل مظاهر الرحمة والانسانية الذى أقدم عليه الرئيس العراقى بغزوه للكويت وحشده لقواته على الحدود السعودية ، يعد فى الواقع أعنف ضربة وجهت لمسيرة الحضارة الانسانية والتقدم البشرى ، وأخطر عقبة وضعت فى سبيل الجهود الرامية لإقرار الأمن والسلام الدوليين ، وهى الجهود المتصلة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى الآن .

فلقد كان الاعتقاد السائد أن العالم ـ بعد تشييعه لهتلر فى عام ١٩٤٥ ـ تخلص بشكل نهائى من آخر الحكام الطغاة أصحاب العاهات النفسية المتعطشين للدماء . لهذا كان الخطب جللا والأمر خطيرا وباعثا لأعمق مشاعر القلق حتى لأولئك الذين لا يمكن احتسابهم من الأصدقاء القائمين أو المحتملين للعرب فى أى وقت من الأوقات .

ذلك لأننا لو تصورنا جدلا أن كل دول العالم (عدا دولة واحدة فقط) كان لديها من الأسباب ما يدعوها لكراهية الكويت أو المملكة العربية السعودية ، والدوافع التى تجعلها تتحين الفرص أو تختلق الذرائع للعدوان عليها أو مناوأتها أو محاولة الإساءة إليها بأى صورة من الصور . ثم سألنا أى عابر سبيل عن اسم هذه الدولة المستثناة من بين كل دول العالم . فسوف تكون الاجابة الفورية التى لا تحتاج لإمعان التفكير ، هى العراق . .

فطبقا لما يقتضيه منطق الأمور ، لابد وأن يكون العراق هو أكثر دول العالم إخلاصا ووفاء وتقديرا لدول الخليج وفى مقدمتها الكويت والمملكة العربية السعودية . ليس فقط لأسباب معنوية أو عاطفية تتمثل فيما يربطه بهذه الدول من روابط الجوار والتاريخ والأخوة العربية ووحدة التراث واللغة والدين الحنيف الذى يأبى الظلم والغدر والطغيان . بل وأيضا لأسباب مادية وموضوعية يدركها الصغير قبل الكبير وكل ذى شرف وضمير .

فمما هو معروف للعالم أجمع أن دول الخليج هبت ، وبدافع من نخوتها العربية وضميرها الاسلامى ، لنجدة العراق ولإنقاذه من هزيمة منكرة ومصير مظلم كاد أن ينزلق إليه فى مرات عديدة خلال سنوات حربه ضد إيران والحيلولة دون تمكين الأخيرة من تحقيق مطالبها التى كان فى مقدمتها إسقاط نظام الرئيس العراقى صدام حسين .

ولم يقتصر ما قدمته المملكة ودول الخليج للعراق طوال سنوات الحرب الثمانية على الآلاف من ملايين الدولارات التى كانت كافية بحد ذاتها لتمكين هذه الدول لو أرادت من امتلاك ترسانة من الأسلحة الخاصة بها تفوق ما يمتلكه الجيشان المتحاربان معا . غير أنها آثرت العراق وكرامة العراق واستقلال العراق على نفسها ، بل وفتحت له موانئها ومطاراتها وسخرت لمجهوده الحربى والمدنى كل ما كان العراق بحاجة إليه من طرق مواصلات وتسهيلات وأمدته بما كان ينقصه من السلاح والبترول وقدمت له الحد الأقصى من الدعم السياسى والإعلامى وتحملت فى سبيل وقوفها بجانبه كل أنواع المكاره من جانب النظام الإيرانى الذى كان يقوم ، كما يعرف العالم ، بأعمال انتقامية ضدها كتلغيم الممرات الملاحية التى تستخدمها للإضرار باقتصادياتها وأيضا باعتراض السفن ومحاولات العدوان المباشر واختطاف الطائرات واحتجاز الرهائن واغتيال الدبلوماسيين . . . الخ .

لمثل هذه الأسباب ، وللكثير غيرها مما لا أرى ضرورة للتعرض له جملة وتفصيلا . كان العراق من وجهة النظر العربية والعالمية والإنسانية والأخلاقية ، آخر قوة فى العالم يمكن تصور أن تكون معادية لدول الخليج . بل على العكس من ذلك ، فقد كان الاعتقاد السائد أن العراق سيكون أول المدافعين عن أى من هذه الدول فيها لو تعرضت لعدوان . خصوصا وأن الرئيس العراقى حرص دائما على أن يؤكد هذا المعنى بنفسه فى العديد من المناسبات . وحسبى أن أستشهد هنا ببعض الفقرات التى وردت فى صلب المرسوم الجمهورى العراقى رقم ١٦٦ الصادر بتقليد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز أرفع الأوسمة العراقية ، وهو وسام الرافدين من الدرجة الأولى تقديرا لمواقفه حفظه الله مع العراق حكومة وشعبا خلال حربه ضد إيران . حيث نقرأ الآتى :

.....

« وكانت مكانة أخينا خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود فى مقدمة القادة العرب الذين بذلوا المال سخيا وأسهموا فى وضع السلاح فى أيدى مقاتلى قواتنا المسلحة بكرم عظيم لم يرتق إليه فى ميدانه كرم على الاطلاق . فضلا عن كرمه فى الميادين الأخرى » .

« ففى سنوات الحرب الأولى لم يكن العراق منتجا للسلاح وكان كل السلاح الذى يحتاجه فى المنازلة يشترى من الأسواق العالمية . . ولأن المنازلة استمرت ثمانى سنوات فقد أتت أو كادت تأتى على كل ما كنا نمتلك من العملات الأجنبية وكنا كلما احتجنا إلى المعاونة بعثنا من يعرض على أشقائنا حاجتنا وكان أكثر ما يسر نفوسنا أن ينقل إلينا المبعوثون ما كانوا يلمسونه من نخوة أخينا الملك فهد . . » .

« وكان من جملة تدابيرنا لمواجهة الحصار الاقتصادى الذى فرضته ضدنا إيران ، مفاتحة أخينا خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حول إمكانية مد أنبوب لنقل النفط العراقى عبر الأراضى السعودية باتجاه البحر الأحمر . . وكانت موافقة أخينا الملك فهد فورية . بل ولقد وضع أخونا الملك ميناء القضيمة بكامله تحت تصرف العراق لتأمين احتياجاته بدون عوائد ، كما كان الإخوة فى المملكة ينقلون تلك الاحتياجات على نفقتهم حتى وصولها إلى

المخازن داخل العراق . وكانت تلك التدابير ذات تأثير سياسى ونفسى واقتصادى على ميدان المعركة » . .

ومن هنا كانت الدهشة بالغة والذهول تاما عندما صحا الناس ذات صباح ، هو بالتحديد صباح يوم الخميس الثانى من أغسطس ١٩٩٠ ، ليجدوا الرئيس العراقى المغوار على رأس جيشه المهيب (جيش قادسية صدام) وهو يقرع بأعقاب البنادق أبواب الأيامى الغافلات النائمات فى بيوتهن بمدينة الكويت ، ويقتحم ببسالة نادرة وحماس منقطع النظير غرف النساء والأطفال ثم يستعرض أمام الجميع ، بزهو بالغ وإتقان المهرة -من المحترفين ، قدراته الفذة على فتح الخزائن الفولاذية للبيوت والمصارف والمتاجر بسهولة وسرعة تخطف الأبصار .

لقد فجر العدوان العراقى على الكويت عددا كبيرا من القضايا الخطيرة وطرح الكثير من التساؤلات الهامة حول مستقبل العلاقات الدولية فيما بعد زوال هذه الغمة بحول الله ، والتى يتعين أن نبحث لها عن إجابات شافية منذ الآن .

فهناك على سبيل المثال لا الحصر ، سؤال عن آثار وانعكاسات الغزو العراقى على القضايا العربية ؟ . . وسؤال آخر عن مستقبل التضامن العربى فى ضوء ما تمخضت عنه محاولات معالجة القضية فى الإطار العربى ؟ . . وهناك كذلك سؤال ملح وبالغ الأهمية حول استخدام ، أوعلى الأصح سوء استخدام ، بعض الحكام للمشاعر الدينية للمسلمين ؟ . . .

وفيما يتعلق بالسؤال الخاص بانعكاسات الغزو العراقى على القضايا العربية فمن الواضح أن هذا الغزو قد صرف النظر تماما عن القضية الفلسطينية التى ظلت تمثل الشغل الشاغل لدول المنطقة ولقطاع كبير من الرأى العام العالمى طوال الأربعين سنة الماضية ، ليس فقط على المستوى العربى وانما أيضا على المستوى العالمى وبصورة أخشى معها من أن يكون هذا الغزو قد عاد بهذه القضية (رضينا أم أبينا) الى بداياتها الأولى .

كما يلاحظ أن التأثير السلبى للغزو لم يقتصر على الجانب الإعلامى فقط لهذه القضية وإنما يمتد أيضا إلى الجانب الموضوعى المتعلق بقناعة الرأى العام العالمى بمدى مشروعية الاحتلال من وجهة نظر العالم العربى عامة ومنظمة التحرير الفلسطينية خاصة .

كذلك فإن هذه الغزوة وجهت ضربة موجعة للانتفاضة الفلسطينية التى كانت تعد الوجه المشرق للقضية الفلسطينية وكادت أن تؤتى ثمارها الطيبة بعد أن روتها الدماء الزكية لشهدائها الأبطال على مدى ثلاث سنوات متصلة . تماما كما أهدرت هباء دماء مئات آلاف العراقيين الذين راحوا ضحية الحرب العراقية الإيرانية لغير ما قضية .

واستكمالا لأبعاد الصورة الحزينة للمأتم العربى والعرس الصهيونى ، فقد شتت الغزو العراقى البربرى للكويت ، وبالأسلوب الذى تم به والنتائج التى انتهى إليها ، انتباه الرأى العام العالمى تماما عن جريمة الهجرة الجماعية من روسيا إلى إسرائيل بالإضافة إلى اهتزاز قناعته بشدة (أى قناعة الرأى العام) بأن إسرائيل هى التى تشكل خطورة على السلام فى المنطقة وخلق الشك فيما إذا كان العرب جديرين فعلا بأن يُسمح لهم بامتلاك أسلحة الدمار الشامل مثلما سُمح لإسرائيل وغيرها . .

وبالنسبة للتساؤل الخاص بمستقبل التضامن العربى بعد انقشاع غبار الزلزال الذى أصاب المنطقة مؤخرا وزعزع العديد من الأسس والقواعد التى تقوم عليها العلاقات الدولية عامة والعلاقات العربية خاصة . فيكفى المرء أن يُمعن النظر قليلا فيما يعنيه قيام دولة عربية بغزو دولة عربية أخرى وابتلاعها بهذه الصورة الوقحة التى لم تجرؤ أعتى قوى الاستعمار العالمى على الإقدام عليها . ثم لنسأل أنفسنا سؤالا بسيطا ، أوحتى ساذجا ، عما إذا كان من الممكن اعتبار هذا العمل شكلا من أشكال التضامن المعروفة أو صورة من صوره الحديثة المطورة ؟ . أم أنه الدليل المادى على أن هذا التضامن لا وجود له إلا فى البيانات الرسمية أو فى المقالات الصحفية وعلى ألسنة الخطباء ؟ . .

كذلك فقد رأينا كيف أظهرت الجهود المبذولة لمعالجة هذه الأزمة فى الإطار العربى من أن هناك تفككا خطيرا واختلافا فى الرؤى والنوايا بين الدول العربية وصل إلى حد قيام بعضها بافتعال الخلافات الجانبية وإثارة القضايا غير الجادة وتقديم المقترحات غير المنطقية ، فى محاولة واضحة ومريبة لتعطيل فاعلية التضامن العربى إزاء المشكلة ولو فى صورته اللفظية البحتة المتمثلة فى مجرد إصدار بيان استنكار للغزو ومطالبة المعتدى بالانسحاب . .

وأيضا لما تبين من استخفاف الرئيس العراقى بكل قيم الأخوة وازدرائه للجهود العربية المخلصة والنداءات الموجهة اليه والتى كادت أن تصل إلى حد

التوسل ، بأن يعيد النظر فى موقفه لينسجم مع الحق والشرعية ، بل والأهم من ذلك ليحقن دماء المسلمين ولإنقاذ العراق من مصير مؤلم يوشك أن ينزلق إليه . . فهل بعد كل هذا شك فى أن تضامننا حقيقيا لم يكن موجودا ؟ . ثم إذا كان قد ثبت أن التضامن لم يكن موجودا أصلا ، أو أنه كان موجودا ولكنه اخترق وانتُهك ومُزق مثلما مُزقت اتفاقية الجزائر . . فهل من المنطق أن نبحث فى مستقبل شىء لم يكن موجودا أو لم يعد موجودا ؟ . لذا فإن الأجدى فى تقديرى أن نبحث عن صيغ جديدة للعلاقات العربية والتضامن العربى منذ الآن وإلى أن يهبنا الله القدرة اللازمة لتحقيقه .

أما عن التساؤل الثالث والخاص بظاهرة استخدام الدين فى التغرير بالمسلمين وتوظيف عواطفهم الإيمانية لخدمة أغراض دنيئة لا صلة لها بالدين على الإطلاق . فلقد كنا نظن بأننا استرحنا من الخمينى الذى كان يعلق المفاتيح فى رقاب الأطفال قبل أن يدفع بهم إلى حقول الألغام ليفتحوا بها أبواب الجنة فور انتقالهم الى الآخرة ، ولكن يبدو أننا كنا واهمين ، حيث خرج علينا الرئيس العراقى مؤخرا ، وهو بعد لم يغسل يديه من دماء المسلمين من أبناء الكويت الأبرياء وحتى من أبناء العراق ، لينادى بالجهاد باسم الاسلام .

ومع أننى لا أعرف الطريقة المناسبة لمواجهة هذه الظاهرة بما تستحقه وبما يكفى للقضاء عليها : الا أننى أود أن ألفت الانتباه إليها مؤكدا انعكاساتها السلبية البالغة الخطورة ليس على المسلمين فقط ، وانما على الإسلام نفسه عن طريق اتخاذه وسيلة لتضليل المسلمين واستغلال حماسهم الإيمانى فيما لا صلة له بالدين مما يهز ثقتهم ويسىء إلى سمعتهم ومصداقيتهم أمام الرأى العام العالمى .

وحتى لا يأتى من يتهمنى بالتحامل على الرئيس العراقى فيما يتعلق بادعائه زورا وبهتانا من أنه من أشد المسلمين حرصا على الدين الحنيف وغيرة على الأماكن المقدسة . ولكى أبرىء ذمتى من توجيه اتهام باطل للرئيس العراقى عبر إثبات أن ادعاءه السالف الذكر ما هو إلا شكل من أشكال التمويه والمراوغة التكتيكية التى يجيدها عند مواجهة المآزق (مثلما فعل مؤخرا مع إيران بعد أن وجد نفسه محاصرا) فسوف أستعير هنا مقتطفات من أحد الكتيبات الإعلامية التى تقوم السفارات العراقية نفسها بتوزيعها فى الخارج .

من بين المواد الإعلامية التى تقوم السفارات العراقية بتوزيعها ، كتيب

لمؤلف يدعى د. أمير اسكندر ، بعنوان (صدام حسين مناضلا ومفكرا وإنسانا) . وتحت عنوان داخلى على الصفحة ١٥٤ (الدين والتراث : مراجعات ثورية) ، نقرأ الآتى :-

بعد نكسة ١٩٦٧ ، **ادعى** بعض المفكرين والباحثين أن خلاص المجتمع العربى فى العودة إلى الينابيع الإسلامية الأولى . فلقد كتب الشيخ عبد الحليم محمود ، الذى كان **يجلس** وقتها على مقعد الإمام الأكبر للجامع الأزهر (ولاحظ أسلوب السخرية والاستنكار) ، كتب سلسلة من المقالات **يدعى** فيها أن أس البلاء هو الفلسفة اليونانية والأوروبية والمتفلسفة العرب الذى أفسدوا - **فى رأى الشيخ** - التراث الإسلامى ، وأن الخلاص الذى اقترحه إمام الجامع الأزهر ، هو العودة إلى سواء السبيل ، إلى المنبع الذى لا ينضب ، إلى الإسلام ودستوره القرآن . . .

ثم بعد أن استعرض المؤلف نماذج من أقوال المعارضين لهذا الفكر (فكر شيخ الأزهر) لآخرين من أمثال صادق جلال العظم وأدونيس (المعروف لمعظم القراء) ، محيطا كلماتهم وآراءهم بالتوقير والاحترام . يصل المؤلف إلى هدفه الأساسى من هذا العرض عندما يقول : إزاء هذا كله ، يكتسب النص الذى قدمه صدام حسين بعنوان « نظرة فى الدين والتراث » أهمية بالغة وخصوصية متميزة . لا من حيث أنه محاولة جادة وعميقة وحاسمة **لإعادة وضع الرءوس فوق أكتافها فحسب** (ولاحظ التعبير البشع) وإنما لأنه يمثل إضافة فكرية وسياسية للتراث القومى العربى فى العصر الحديث . .

ويستطرد المؤلف عرضه لفكر صدام حسين الملهم : « وينبغى أن نقول منذ البداية أن حزب البعث العربى الاشتراكى هو حزب يضيف إلى جوهره القومى **فكره العلمانى** ، مثلما هى دولة البعث فى العراق فى نظريتها التى تهتدى بها وفى ممارساتها ، **دولة قومية وعلمانية** . . والمعنى المباشر لهذه العبارات هو التمسك بالدولة القومية العلمانية . فالمواطنون جميعا ، بصرف النظر عن دينهم وطائفتهم ومذهبهم ، متساوون أمام الدولة . ولا فضل لمواطن على آخر **إلا بمدى تعلقه بوطنه** ، **وارتباطه بالثورة** ، ونضاله من أجل بناء مجتمعها الجديد وتحقيق مثلها وتجسيد أهدافها . **فليؤمن كل مواطن بما يشاء من كتب السماء** ، **وليعتنق ما يشاء من مذاهب الأرض** . **فالكل أمام الدولة والثورة سواسية كأسنان المشط** » . . .

ثم ينقل لنا المؤلف أيضا من فكر رئيسه وملهمه ، مما ورد فى الصفحة **٣٣** من كتابه السالف الذكر ، قوله : « **لأن الاستسلام للدعوات الرجعية لبعض الأوساط الدينية** (وهو يقصد الإسلام بالطبع) **يستلزم أن تترك دورك القيادى للمجتمع** المتمثل فى حركة ثورية تصنع الحاضر وتتطلع إلى المستقبل بطرق وبصيغ واضحة معروفة ، **وأن تتخلى عنه لتنتظم فى صفوف حركة سلبية متخلفة تقتصر على التطلع إلى الماضى** . . وتبدأ السلم من أوله » .

ثم يستطرد القائد الملهم على الصفحة **٣٤** من كتابه ليقول : « ولن يجدى كثيرا التظاهر بتعقب الرجعية ، وتصور إمكانية احتوائها وإفراغها من سمومها عن طريق التداخل أو الالتحام المؤقت المحسوب . **ذلك لأن الرجعية الدينية** وفق مثل هذه النظرة سوف تكون هى **قائدة المسيرة** ، لا أنت ، **ولذلك فلن تكون أنت الذى سيقوم بتعبئة الجماهير على هذا الطريق لتستطيع التحكم فى مساراته واتجاهاته اللاحقة لتكيفه وفق ما تريد** . وإنما هناك قادة غيرك من أوساط الرجعية متخصصون فى هذه المسألة سيتولون هم الأمور على طريقتهم .

وأكتفى بهذا القدر ، معتذرا عن الإطالة والاستطراد فى نقل **بعض صور الفكر السياسى العلمانى الإلحادى للرئيس صدام حسين ، والذى يشكل ركنا أساسيا فى عقيدته الدينية والسياسية وممارساته فى حياته اليومية . الأمر الذى يؤكد كذب ادعاءاته وأن هذه الادعاءات ليست سوى محاولات تكتيكية لاستفزاز مشاعر المسلمين والتلاعب بعواطفهم الدينية لاستخدامهم وقودا لمغامراته الدنيئة .**

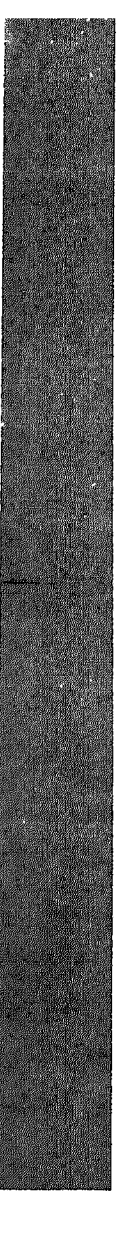
وليس من شك فى أن أى انسان ، مهما كان نصيبه محدودا من الذكاء ، يستطيع أن يدرك بسهولة الأسباب التى جعلت الرئيس صدام حسين يتحول فجأة من حامى حمى العلمانية الملحدة إلى مسلم شديد الحرص على الإسلام وأكثر غيرة على الأماكن المقدسة من أهلها . . وذلك لأنه أدرك سوء موقفه العالمى ، وأن المساندة العربية والصديقة التى تلقتها المملكة وبقية دول الخليج والتى لم يكن يتوقعها بمثل هذا الحجم وبهذه السرعة ، قد وقفت سدا أمام أطماعه وأيقظته من غفلته وأحلامه المريضة بإمكانية ابتلاع دول المنطقة الواحدة تلو الأخرى ، أو فرض سيطرته عليها من خلال وضعها تحت تهديده

وإرهابه باستخدام الأسلحة الكيماوية التى كان قد ادعى يوما أنه يعدها للدفاع عنهم ضد طغيان إسرائيل .

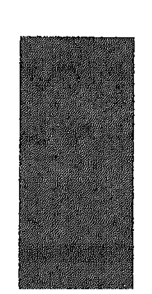
غير أنه يبدو أن الرئيس صدام حسين نسى شيئا هاما ، وهو أن المملكة العربية السعودية ليست الصيد السهل الذى ظنه ، كما يبدو أنه وقع فى هذا الخطأ لأنه لا يقرأ التاريخ ، أو أنه يقرأ ولكنه لا يستوعب . حيث لو أنه قرأ تاريخ أسد الجزيرة ابن سعود العظيم ، وفهم معنى التضحيات الجسيمة التى بذلها هو وأبناؤه البررة فى سبيل بناء هذه الدولة وتثبيت أركانها واستعدادهم غير المحدود لافتداء مقدساتها وكل ذرة من ترابها . لما واتته الجرأة أو راودته الأحلام للعدوان عليها . أو حتى مجرد التلويح بمثل هذا العدوان □



٢



تشريح سياسى لجريمة العصر



على مدى الفترة الممتدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن ، شهد العالم عددا من الأزمات الحادة والأحداث التى شكلت تهديدا للأمن والسلام العالمى كان من بينها على سبيل المثال : الحرب الكورية والحرب الفييتنامية وأزمة الصواريخ الكوبية والعدوان الثلاثى على مصر (٥٦) والعدوان الإسرائيلى على كل من مصر وسوريا والأردن (٦٧) والحرب العربية الإسرائيلية (٧٣) وأزمة جزر المالوين ثم أحداث أوروبا الشرقية وما تلاها من تداعيات هزت الأسس التى قامت عليها موازين القوى والحرب الباردة لزمن طويل .

ومع أن بعض تلك الأزمات كانت من الخطورة بحيث كاد الاستقرار العالمى ينجرف أمام تيارها العاتى ، إلا أن مسرح الأحداث لم يشهد بالتأكيد خلال الفترة المشار إليها ما هو أكثر سوءا وأشد خطرا على السلام العالمى من هذه الأزمة الناجمة عن الاجتياح العراقى لدولة الكويت والتى ما زلنا نعيش أحداثها الغريبة وهواجسها المفزعة .

وأكون مبالغا لو قلت هنا إن بمقدورى التنبؤ بما يمكن أن تنتهى إليه

أحداث هذه الدراما المأساوية ، أو تصور ما يحتمل أن تتمخض عنه من نتائج فى المستقبل القريب والبعيد على حد سواء . حيث أن هذا فى الواقع فوق طاقتى ، بل وقد أسمح لنفسى بالقول إنه أيضا فوق طاقة الآخرين بما فيهم صانعو القرارات أنفسهم من ذوى العلاقة المباشرة بهذه الأزمة . وذلك لسبب بسيط ، وهو أن أحدا لا يعرف على وجه التحديد السبب الحقيقى الذى أدى إلى نشوء هذه الأزمة حتى يستطيع أن يضع تصوره أو تقديراته لنتائجها على أسس منطقية .

وفى محاولة لاستكشاف طريق يؤدى إلى حل للغموض المحيط بهذا اللغز المحير وفهم الدوافع الحقيقية لإقدام العراق على اجتياح الكويت بهذه الصورة الهمجية الوحشية التى خلت من كل أشكال الرحمة والإنسانية وانعدمت فيها مظاهر الرجولة والشهامة والنخوة العربية والخلق الإسلامى ، لابد وأن نتفحص أولا المبررات التى قدمتها القيادة العراقية . لا لأننا نتوقع من هذه القيادة أن تتوخى الصدق والأمانة ، وانما لأنها الوحيدة التى تملك الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال باعتبارها صانع الحدث والفاعل الأصلى الذى يتحتم أخذ أقواله بصرف النظر عما إذا كانت هذه الأقوال سوف تحتسب له أو عليه . غير أنه يتعين أن نستعرض هنا شريطا موجزا للأحداث التى سبقت وقوع الجريمة مباشرة وكانت جزءا منها والمرحلة التمهيدية لها . وذلك على النحو التالى :-

١ - فى السابع عشر من شهر يوليو الماضى ، أى قبل وقوع الجريمة بأسبوعين ، قام الرئيس العراقى بتوجيه الاتهام العلنى لكل من الكويت والإمارات العربية المتحدة ، ناسبا إليهما التآمر مع القوى الاستعمارية لخفض أسعار النفط عن طريق تجاوز حصتهما الإنتاجية المقررة ، بهدف تدمير اقتصاديات العراق ، الأمر الذى تسبب فى خسارته (أى خسارة العراق) لما لا يقل عن أربعة عشر مليارا من الدولارات . . . ثم أضاف الرئيس العراقى إلى اتهامه السالف الذكر تهديدا صريحا لم يكن له ما يبرره على الإطلاق ، حيث قال : إن إزالة هذا الضرر لا تتم إلا من خلال إعطاء العراق ما سلب منه ، وإلا فهناك من الوسائل الأخرى ما هو كفيل بتحقيق ذلك . . .

٢ - وفى اليوم التالى مباشرة قام وزير الخارجية العراقى طارق عزيز بتقديم مذكرة إلى الجامعة العربية يتهم فيها الكويت بأنها انتهزت فرصة

انشغال العراق فى الحرب مع إيران واستولت على أراض عراقية ضخت منها نفطا بلغت قيمته ٢,٤ مليون دولار طوال سنوات الحرب . ومن ثم فإن العراق يطالب بحقوقه .

٣ - ردت الكويت على هذا الاتهام ، وأيضا على الاتهام الذى سبقه ، بمذكرة مماثلة قدمتها إلى الجامعة العربية وطلبت فيها التحكيم ، مع استعدادها التام لتقبل نتائج هذا التحكيم . ثم جرت اتصالات عاجلة مع العراق لتسوية الأزمة ولكن العراق لم يرفض التحكيم فقط ، بل قام بنشر قواته على الحدود بينه وبين الكويت مدعومة بالمئات من الدبابات وقطع المدفعية والآليات المدرعة . الأمر الذى أثار دهشة الجميع ، بالنظر لعدم حدوث ما يستحق هذا التصعيد أو ما يبرر اللجوء للعدوان المسلح ، حتى ولو كانت اتهامات العراق صحيحة وثابتة بالوثائق الرسمية . . .

٤ - ونتيجة للمساعى الحميدة والمكثفة التى سارع إلى بذلها بعض المخلصين من الحكام العرب ، بهدف تفريغ شحنة الانفعال (المصطنع) وحصر النزاع فى حجمه الطبيعى والعمل على حله فى الإطار العربى والأخوى وبالطرق السلمية ، لم يوافق العراق بعد جهد جهيد إلا على اجراء مباحثات ثنائية بينه وبين الكويت فقط لا يشترك فيها طرف ثالث . . مع التعهد من جانبه بعدم اللجوء إلى استخدام القوة أو المساس بأمن الكويت .

٥ - وتم فعلا ترتيب اجتماع لهذا الغرض حضره وفدا البلدين فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يوليو نفسه بمدينة جدة وتحت رعاية المملكة العربية السعودية . غير أن المباحثات انتهت بالفشل من الجلسة الأولى ، وليسارع الوفد العراقى إلى العودة لبلاده .

٦ - وكان سبب فشل المباحثات ما قام به الوفد العراقى من مناورات مريبة تمثلت فى عمله على تغيير مكان الاجتماع ثم إصراره على فرض شروطه المعدة سلفا على الجانب الكويتى وطلبه التوقيع عليها بالموافقة دون السماح بمناقشتها . . ولقد فسرت هذه التصرفات أسباب رفض العراق بداية للتحكيم وتمسكه بالمباحثات الثنائية . . . على أى حال فشلت المباحثات وعاد الوفدان إلى بلديهما ليفاجأ العالم فجر اليوم التالى (الثانى من أغسطس ١٩٩٠) وبعد ساعات قليلة من ذلك الاجتماع ، باجتياح الجيش العراقى للكويت .

٧ ـ وعلى الرغم من أن العراق كان قد مهد لعملية الاجتياح بالاتهامات السابق ذكرها والمتضمنة الادعاء باستيلاء الكويت على بترول يخصه والمشاركة فى مؤامرة لتدمير اقتصاده (على حد زعمه) ، عاد فاكتشف على ما يبدو بعد وصوله إلى الكويت أن هذا المبرر غير كاف أو غير مقنع للرأى العام . لذا لجأ إلى مبرر جديد مفاده أنه جاء الى الكويت تلبية لدعوة من (حكومتها المؤقتة) التى استولت على السلطة ثم طلبت حمايته . . .

٨ ـ ومرة أخرى لم يتقبل الرأى العام العالمى هذا المبرر الجديد بالارتياح بل رأى فيه أسلوبا تهريجيا تافها جديرا بالاحتقار والسخرية ، خصوصا وأن العالم كان متأكدا من عدم قيام انقلاب فى الكويت وعدم جدية وجود الحكومة المؤقتة المزعومة إلا فى استديوهات إذاعة بغداد .

الأمر الذى دعا القيادة العراقية إلى البحث عن مبرر جديد لعله يكون أكثر إقناعا أو قبولا ، على الأقل من الطبقات الفقيرة سواء فى داخل الكويت أو خارجها . لذا قدم مبرره الجديد على أن القوات العراقية قامت بغزو الكويت لتحرير الشعب الكويتى من الحكم العميل ، ولإعادة توزيع ثروة النفط توزيعا عادلا لصالح فقراء العرب . . .

٩ ـ ثم توالت المبررات فى صورة أكاذيب ، أو الأكاذيب فى صورة مبررات تتسارع على إيقاع سرعة الأحداث وردود الفعل العربية والدولية . فمرة تقول القيادة العراقية إنها قامت بتحرير الكويت باعتبارها الخطوة الأولى نحو تحقيق الوحدة العربية . . ومرة أخرى تدعى أن تحرير القدس يمر أولا بالكويت . . ولكنها أخيرا عثرت على تفسير التفاسير عندما وجدت القيادة العراقية ضالتها فى القول بأن اجتياح الكويت ما هو إلا استرجاع لجزء من أرض العراق السليبة التى كانت قد اقتطعت منه غصبا أيام الاستعمار البريطانى .

١٠ ـ والآن . ترى هل ما زال فى جعبة الرئيس العراقى المزيد من الحيل والأضاليل والترهات والأكاذيب التى يساعده على صياغتها رجال جوبلز السابقون وبعض المرتزقة المحليون ؟ . . الواقع أن الرئيس صدام حسين هو الوحيد الذى يعرف الإجابة عن هذا السؤال . **ولكن ما نستطيع تأكيده هنا أن عملية الاجتياح كانت عملية قذرة شديدة الغموض بنيت على**

أخطاء جسيمة أهمها عدم التبصر والتقدير السليم للنتائج وردود الأفعال المحتملة . كما أن المبررات التى قدمها العراق لم تفسر شيئا وإنما زادت الأمر غموضا بحيث لم يعد أمامنا أو أمام أى مهتم بهذا الموضوع سوى الاستنتاج المبنى على استقراء الأحداث كالتالى :-

أولا : أن ما أقدم عليه الرئيس صدام حسين من احتياح للكويت لم يكن وليد يوم وليلة وإنما كان تدبيرا محكما مع سبق الإصرار والترصد ، شاركه فيه تخطيطا وتنفيذا بعض المنافقين والطامعين والحاقدين فى المنطقة .

ثانيا : ما قام به الرئيس صدام حسين من مناورات وتحركات فى العديد من الاتجاهات ، وخاصة على الساحة الإعلامية ، مستخدما الأطفال تارة والرهائن من الدبلوماسيين والعاملين الأجانب فى العراق والكويت تارة أخرى ، ومن مبادرات مجوفة تارة ثالثة ، لم يكن الهدف من ورائها إلا التسويف وإضاعة الوقت بغرض تمييع الوضع وصرف الانتباه عن الجريمة الأصلية وهى احتلال الكويت .

ثالثا : مثلما استخدم الدين فى التلاعب بمشاعر المسلمين لتضليلهم ثم توظيفهم لخدمة أهدافه الدنيئة ، لم يتورع الرئيس العراقى عن ارتكاب كافة أنواع الجرائم التى يعاقب عليها القانون الدولى العام ، بما فى ذلك احتجاز الرهائن الأبرياء للاحتماء بهم من عقاب المجتمع الدولى وأيضا للابتزاز ، حيث بدأ يلمح إلى استعداده لمبادلة بعضهم بالطعام والدواء . . . إلخ .

وفى تقديرى أن هذا الابتزاز سوف يستمر لتحقيق هدفه الأصلى بتمييع قضية احتلال الكويت عن طريق امتصاص الغضب الدولى بمرور الوقت ، بل وسوف يتصاعد هذا الابتزاز بمعنى أنه إذا كان يقبل اليوم مبادلة الرهينة مقابل طن من الطعام أو الدواء مثلا ، فسوف لا يقبل إتمام هذه المبادلة غدا وبعد اشتداد أزمة الحصار بأقل من شحنة طائرة كاملة . بل وربما يلجأ الى طلب السلاح أيضا مقابل الرهائن . . .

رابعا : فى الوقت الذى تتوقع الولايات المتحدة والدول المساندة لها أن تؤتى العقوبات الاقتصادية الدولية التى فرضها مجلس الأمن ثمارها المرجوة فى وقت قريب باضطرار العراق للخضوع والتسليم بالشرعية الدولية بغير قتال . يراهن الرئيس العراقى على الوقت ، انطلاقا من قناعته بأنه إذا استطاع

الصمود لعدة أشهر (وهو بالمناسبة متأكد بينه وبين نفسه من أنه يستطيع ذلك فعلا عن طريق تآمر بعض الدول المجاورة معه وأيضا عن طريق الابتزاز والاتجار بالرهائن كما سبق الإشارة اليه) فسوف يمتص تماما حماس الرأى العام الدولى وتنتهى القضية لصالحه .

خامسا : يعتمد الرئيس العراقى فى تخطيطه لاستهلاك الوقت على جهد إعلامى ضخم تسانده إذاعة بالغة القوة ليشغل العالم من خلال التشهير والتحريض والمبادرات المتتالية التى يعلم قبل غيره عدم جديتها ، وأيضا باستغلال قابلية أمين عام الأمم المتحدة لإفساح المجال أمام الجهود الدبلوماسية بعقد الاجتماعات المتكررة مع أتباعه ، علاوة على قدرته الشخصية على التبجح والإمعان فى التهديد لإشاعة الرعب لدى الرأى العام ودفعه لمطالبة حكوماته بالتساهل معه وتركه يفلت بغنيمته ، حتى ولو من منطلق اعتباره مجنونا لا يتورع عن تنفيذ تهديده .

سادسا : وفى المحصلة النهائية نجد أن محور المخطط الذى يعتمده الرئيس العراقى فى المرحلة الحالية من الأزمة، هو العمل على كسب الوقت من خلال الحركة المستمرة على جميع الجبهات وخاصة الجبهة الإعلامية .

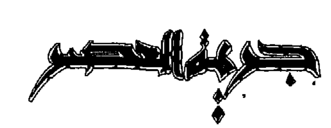
ولذا فإن إحكام الحصار النشط من خلال المتابعة المستمرة ومنع بعض الدول المتآمرة مع العراق (لسبب أو لآخر) من انتهاكه ، والعمل من خلال قرارات مجلس الأمن وعزل العراق إعلاميا . **وأكرر عزل العراق إعلاميا** ، قد يؤدى إلى النتائج المرجوة ، بشرط الحرص على عدم السماح بتآكل الحماس تجاه تحقيق الأهداف الأصلية وعلى رأسها انسحاب العراق من الكويت ووضع الضوابط الكفيلة بكف أذاه عن جيرانه .

وأخيرا فإننى أود أن أتساءل عن المدى الذى يمكن أن يصل إليه العالم فى تعامله مع الرئيس صدام حسين من خلال أساليبه السالفة الذكر ؟ . .
إذ لا شك أن التركيبة الطبيعية للإنسان العادى تجعله يجنح إلى السلام ، خاصة وأن للحرب ويلاتها التى لا تخفى على أحد ، وأن إنسان العصر الحديث بالذات لديه من أسباب العذاب ما يكفيه . لذلك فلابد من أن نعطى الجهود الدبلوماسية فرصة ، بأمل المحافظة على السلام دون تفريط فى المبادىء . وأن نتذرع بالصبر والحكمة ، ولكن بشرط أن نضع لذلك حدودا زمنية معينة ، وألا نجعل الخوف من الحرب والحرص على السلام ينسينا المبادىء الأساسية

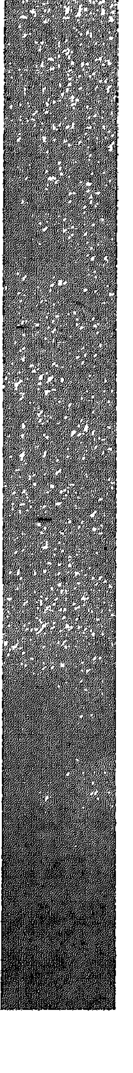
أو يجعلنا نتصرف بطريقة تشجع على تضخم أحلام المجانين وتفتح شهية المجرمين الذين يحلو لهم استثمار هذه المشاعر الإنسانية النبيلة فى إيذاء غيرهم وسلب الآخرين حقوقهم وحرمان المسالمين من أمنهم واستقرارهم .

وقبل أن أنهى الحديث ، أود أن أشير إلى أنه كانت قد ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى دعوة إلى تطبيق مبدأ الأمن الجماعى COLLECTIVE SECURITY بهدف تجنيب العالم التعرض لويلات حرب أخرى مدمرة . ولكن تلك الدعوة لم تلق العناية الكافية لوضعها موضع التنفيذ ، ربما لأن ظروف المجتمع الدولى لم تكن مهيأة تماما لذلك .

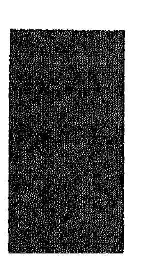
غير أننا لو نظرنا إلى الأمر فى ضوء الظروف الحالية ومن خلال أزمة اجتياح العراق للكويت بهذه الصورة المأساوية البشعة ، فسوف نجد أن الحاجة إلى تطبيق هذا المبدأ أصبحت أكثر إلحاحا بالنظر إلى أن خسائر الحرب ومخاطرها صارت أضعاف أضعاف ما كانت عليه فى الحرب العالمية الأولى أو حتى فى الحرب العالمية الثانية ربما بمئات المرات . وأيضا لحاجة العالم الآن وأكثر من أى وقت مضى إلى الحفاظ على ما حققه من إنجازات علمية ومكاسب حضارية دفع ثمنها باهظا وضحى فى سبيلها بأغلى التضحيات . هذا بالإضافة إلى ما أعتقده من أن الرأى العام العالمى قد أعطى الدليل العملى على أنه أصبح أكثر تقبلا واستعدادا لتطبيق نظرية الأمن الجماعى ، وذلك من خلال قرارات الإدانة المتتالية للعراق والتى أصدرها مجلس الأمن خلال وقت قصير □



٣



الاعلام الأسود
والاحتلال العراقى للكويت



حول الحدث الكارثة الذى وقع قبل فجر يوم الخميس الثانى من أغسطس الماضى على أرض الكويت ، وهو الحدث الذى ما زلنا نعيش بكل جوارحنا هواجسه وأحلامه المفزعة من خلال ما يعرف بأزمة الخليج التى أفضل أن نطلق عليها (الاحتلال العراقى للكويت) . نشرت صحيفة التايمز اللندنية مقالاً للكاتب المعروف الأستاذ محمد حسنين هيكل ، يعبر عن رؤيته الشخصية لأسباب نشوء هذه الأزمة وانعكاساتها المأساوية على أوضاع المنطقة فى الحاضر والمستقبل .

وكلنا نعرف أن الرئيس صدام حسين وفريقا من مؤيديه الذين يتظاهرون بالحكمة وبعد النظر والتعقل وضبط الأعصاب ويعملون فى الحقيقة على امتصاص الغضب الدولى تجاه العدوان ، يبذلون قصارى جهودهم وينفخون فى كل أبواقهم محاولين إحداث أكبر قدر من الشوشرة والضجيج لصرف الانتباه عن الجريمة الأصلية بإثارة القضايا الجانبية مثل تواجد القوات الصديقة على أرض الجزيرة العربية ، وهو التواجد الذى كما هو واضح للجميع ليس سوى واحدة من نتائجها .

كذلك فنحن نعرف أن بعض هذه القوات (الأمريكية والبريطانية والفرنسية وغيرها) سبق وأن استدعيت إلى المنطقة من قبل الكويت فى السنوات الأخيرة من الحرب العراقية الإيرانية وظلت هناك حتى يومنا هذا برغم انتهاء الحرب نفسها منذ أكثر من عامين . ومع ذلك فلم يفزع الرئيس العراقى ولم يفزع مؤيدوه لتواجدها ، سواء تحت شعار العروبة أو انطلاقا من قيم ومبادىء الإسلام . . ترى ماذا تغير ليستحق أن تنقلب له المعايير بهذا الشكل ؟ . .

لقد جاءت القوات الأمريكية والدولية إلى الخليج ابان الحرب العراقية الإيرانية وتمركزت فى بعض من دوله . تلبية لدعوة من الكويت كما ذكرنا ، والتى كانت تتعرض فى ذلك الوقت للتهديد والمضايقات من جانب (إيران) ، وكان لهذه القوات أيضا مصالحها وأهدافها الخاصة التى تتمثل فى حرصها على تأمين حرية الملاحة الدولية فى الخليج وتأمين احتياجاتها من الإمدادات البترولية ، وكان العراق أكبر المستفيدين من تواجد هذه القوات ومن ثم لم يفتح فمه ولم تصدر عنه كلمة اعتراض ، بل بارك هذا التواجد وعمل من خلاله على توريط الولايات المتحدة فى خوض الحرب إلى جانبه عن طريق افتعال عملية المدمرة (ستارك) ، حيث كان المخططون لتلك العملية يتصورون أنهم سوف يخدعون الولايات المتحدة بجعلها تظن أن إيران هى التى ضربت المدمرة .

هذه القوات نفسها هى التى جاءت فى المرة الثانية (أو على الأصح كثفت من تواجدها ، لأنها كانت موجودة فعلا) بدعوة من الكويت أيضا ومن المملكة العربية السعودية ، وأيضا لنفس الأسباب التى دعت لتواجدها فى المرة الأولى ، فيما عدا أن الخطر فى هذه المرة جاء من جانب (العراق) ، الذى لم يشكل تهديدا فقط وإنما ابتلع دولة بكاملها الأمر الذى تطلب من القوات الصديقة أن تضيف لمهمتها السابقة مهمة أخرى جديدة هى منع العراق من استكمال تحقيق بقية أطماعه واسترجاع الكويت من جوفه ومعاقبته على فعلته الدنيئة .

هذا هو الرئيس العراقى « صدام حسين » ، وهذه هى مصداقيته العربية والإسلامية ، وهذا هو وزنه الذى يقدره هو من جانبه بعدد الجنود الذين يستطيع الزج بهم فى ميادين القتل ، مثلما حدث فى حربه مع ايران ،

أو أسلحة الدمار التى يمتلكها ويستخدمها بفاعلية كبيرة ضد المدنيين الأبرياء سواء فى إيران أو فى شمال العراق .

لذلك فإن أحدا لم يأبه بادعاءات الرئيس صدام حسين أو بأولئك الذين تبعوه كالأذيال ، خوفا كان أم طمعا . أما أن ينسج كاتب كبير مثل الأستاذ هيكل ، الذى له مكانة معروفة فى عالم الفكر والصحافة ، على نفس المنوال وينتهى فى مقاله الذى سبق الاشارة اليه فى بداية الحديث إلى نفس النتائج ، فهذا هو ما يصعب تصديقه .

ومثل غيرى من قراء الأستاذ هيكل الذين يقدرون ثقافته وسعة اطلاعه وبراعته فى التعبير ونقل أفكاره إلى الآخرين ، فقد صدمنى أن يكون موقفه من أزمة الخليج مطابقا أو مشابها لموقف الرئيس صدام حسين الذى أجمع العالم كله على إدانته بالجرم المشهود ، وداعما لأولئك الذين وصفهم شرفاء العالم بالنذالة والتآمر وضعف الأخلاق .

ذلك لأنهم ، وبالرغم من ادعائهم فى البداية بإدانة العدوان وعدم إقرارهم لاغتصاب حقوق الإنسان وانتهاك حريات الآخرين ، إلا أنهم سرعان ما ينتقلون من هذه المقدمات المزيفة إلى الإفصاح عن أهدافهم الحقيقية من خلال الحديث عن تواجد القوات الصديقة ، لصرف الانتباه عن الجريمة الأصلية وتركيزه على واحدة من نتائجها . وهذا أمر واضح لكل ذى بصر أو بصيرة ودون الحاجة إلى الكثير من المراوغة أو الدوران حول المعانى .

ومن البديهيات فى عالم الطب والدواء ، أن عددا كبيرا من الأمراض ، كالسل والالتهابات الرئوية والزائدة الدودية والقولون وغيرها ، تصحبها عادة بعض الأعراض الجانبية مثل الصداع والسعال والمغص وارتفاع الحرارة . . إلخ ، بل وأحيانا ما تكون هذه الأعراض الثانوية أكثر وضوحا وأشد إيلاما من الأمراض المسببة لها .

لذلك نجد أن الطبيب الماهر يوجه اهتمامه إلى معالجة واستئصال المرض الأساسى الذى بمجرد شفائه تزول تلقائيا أعراضه الجانبية ، أو على الأقل يصبح علاجها أمرا ميسورا وبأقل جهد ممكن . أما إذا وجدنا طبيبا يوجه اهتمامه إلى الأعراض الثانوية دون معالجة المرض الأصلى نفسه ، فماذا تكون

النتيجة ؟ . . أعتقد أنها تكون كارثة . . ثم ماذا يمكن أن نسمى مثل هذا الطبيب ؟ . .

الحقيقة أن مقال الأستاذ هيكل تضمن العديد من العبارات الاستفزازية والمفاهيم الدالة على الاستعلاء القائم على أسس عنصرية ، مثل : البدو والحضر ، وأهل الصحراء وأهل المدن ، والتقدميين والرجعيين ، والمحافظين والمطالبين بتحكيم الشرعية الدستورية . . إلخ .

ومع أن هذه المصطلحات تحمل فى طياتها الكثير من معانى الاستخفاف والمغالطات التاريخية وتثير فى المرء حوافز الدفاع المشروع عن النفس . علما بأن هناك الكثير الذى يمكن أن يقال للأستاذ هيكل بهذا الخصوص . إلا أننى أوثر عدم فتح جبهات للمنازعات الصحفية ، خاصة فى الوقت الحاضر الذى نحتاج فيه أكثر من أى وقت آخر إلى كل طاقاتنا وكل تضامننا حتى نتخلص أولا من هذه المصيبة التى يراها الأستاذ هيكل فى تواجد قوات أجنبية فى الخليج ، ونراها نحن وكل مجانين العالم ـ بما فى ذلك مجلس الأمن ـ فى اختطاف دولة وابتلاعها فى نهاية القرن العشرين . غير أننى أود أن أستأذن الأستاذ هيكل فى توجيه بعض التساؤلات إليه ، على الوجه التالى :ـ

١ ـ تحت أى تصنيف يضع الأستاذ هيكل تواجد القوات الأجنبية (سبب أم نتيجة) ؟ .

٢ ـ إذا كان تواجد القوات الأمريكية وغيرها من القوات الصديقة على أرض الخليج هو من قبيل الخطر على الاستقلال العربى ، فماذا عن اجتياح العراق للكويت وابتلاعها تماما مع كل ما اقترن بهذا الاجتياح الدموى الشرس من قبل للأرواح البريئة وتدمير للمنشآت ونهب للأموال وهتك للأعراض وتشريد لشعب بكامله ؟ . .

٣ ـ ما معنى العبارة التى تضمنها المقال السالف الإشارة إليه والتى تقول : « إنه حتى لو اشتعلت المنطقة العربية فى حرب أهلية ، لكان ذلك أفضل من التدخل الأجنبى » ؟؟ . وهل هذه هى قناعة الأستاذ هيكل فعلا ؟ وما هى الحكمة وراءها التى لم نستطع ادراكها ؟ ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون إعجابا منه بمقولة (ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب) ؟ . .

٤ ـ عندما كان النزاع على أشده لإخراج القوات البريطانية من قناة السويس

ومحاولات الغرب لجر مصر إلى الأحلاف الغربية بحجة مواجهة عدوان شيوعى متوقع . كان لكم تعبير بهذا الخصوص مفاده (هل من المعقول أن ندفع عدوانا **محتملا** بعدوان **قائم** فعلا ؟ . فماذا عن هذا المبدأ بالنسبة لقضية الكويت ؟ ..

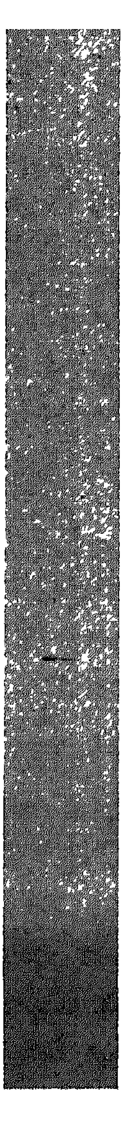
٥ - إذا كان العدوان العراقى خطأ والتواجد الأمريكى خطأ أيضا (من وجهة نظركم) ، فهل من المعقول أن يسوى بين الاثنين مع أن أحدهما نتيجة حتمية للآخر ؟ .

ثم لماذا يثار موضوع التواجد الأمريكى مع موضوع العدوان العراقى فى نفس الوقت ، بل ومع التركيز على الأول ؟ ، وهل مثلكم هو ممن يخفى عليهم تأثير هذا الأسلوب الإعلامى فى تمييع القضية الأصلية . خاصة وقد جاء فى مقالكم سالف الذكر بعض العبارات مثل (تفاوت الثروات ، والحاجة إلى نظام جديد .. إلخ) .

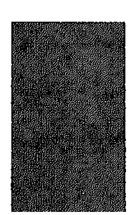
الواقع أننا لو استرسلنا فى التساؤلات ، فسوف لا ننتهى ، لأن لدينا منها الكثير . غير أننى كما سبق وأن ذكرت لا أقصد الإثارة فى الوقت الحاضر الذى يحتاج إلى كل جهودنا . وأسأل الله العلى القدير أن يهدينا ويهديكم إلى سواء السبيل □



٤



الصحافة والحصافة
والوقت الملائم



« **نحن** الآن فى المراحل الأولى لمعركة العقل ، للسيطرة على الجنس البشرى ، معركة سنحاربها من ارتفاع ٣٦ ألف ميل فوق خط الاستواء - آرثر كلارك ١٩٧٦ » . . لا أدرى لماذا قفز إلى ذاكرتى هذا التعبير عندما كنت اقرأ مؤخراً ما نشرته بعض وسائل الإعلام الغربية من مقالات وتحقيقات صحفية لمراسليها فى الخليج . ولقد لفت انتباهى أن عدداً من هذه المقالات تعرض بالغمز واللمز لأساليب الحياة القائمة على الشريعة الإسلامية فى المملكة العربية السعودية ، مثل الحجاب وحق المرأة فى قيادة السيارات ونظام الحكم . . إلخ .

ومع أن محاولات الإساءة إلى المملكة العربية السعودية بصفة خاصة وكل ما هو عربى أو مسلم بصفة عامة عبر وسائل الإعلام الغربية ليست بالأمر الجديد . بل أستطيع القول بأنها لم تنقطع يوماً منذ نشأة القضية الفلسطينية أو ما يعرف بقضية الشرق الأوسط أو النزاع العربى الإسرائيلى . إلا أن ما دعا لأسفى هذه المرة هو أن أصحاب الأقلام التى كتبت هذه المقالات هم حاليا من ضيوف المملكة الذين رحبت بتلبية رغباتهم فى الحضور لتغطية أحداث أزمة الخليج ويلقون منها كل رعاية واهتمام . ولكن دعونا نستعرض أولا أبعاد هذه

تنطلق فى موقفها هذا من منطلق أخلاقى وإدراك كامل لمسئولياتها الحضارية والدولية واحترام لالتزاماتها بالدفاع عن الشرعية والعمل على استتباب الأمن والاستقرار العالمى ومناهضة الخروج على الانضباط فى مجال العلاقات الدولية . وذلك بصفتها زعيمة للعالم الحر .

أما إذا كان هناك من يحاول ، فى إطار الجهود المبذولة من قبل بعض الجهات التى يأتى فى مقدمتها المعتدى نفسه ، لصرف الانتباه عن العدوان بإثارة الغبار حول التواجد العسكرى فى المنطقة والتحريض ضد التواجد الأمريكى بصفة خاصة ، تارة بدعوى المساس بالأماكن المقدسة وطورا بالترويج لمقولة أن الولايات المتحدة لم تنطلق فى موقفها المناهض للعدوان من حرصها على المبادىء أو رغبتها فى الدفاع عن الشرعية . وإنما تحركها مطامعها وتدفعها مصالحها الخاصة المتمثلة فى ضمان تأمين إمدادات النفط التى تشكل العصب الحساس بالنسبة لحضارتها وللحضارة الغربية بصفة عامة . فنحن على ثقة من الآتى :-

أولا : أن النظام العراقى العدوانى والذين يشايعونه ، لا يهدفون من وراء ترويج هذه المقولة (بصرف النظر عن صحتها أو عدم صحتها) إلا إلى التشكيك والوقيعة وتكوين جبهة معادية لتواجد القوات الصديقة وبصفة خاصة الأمريكية ، تعمل على المطالبة بإنهاء هذا الوجود . وذلك لكى يأخذ المعتدى الفرصة التى يحتاجها ليستريح ويكرس عدوانه ويفلت من العقاب على جريمته .

ولعل هذا كان هو الدافع وراء التصريحات التى أدلى بها بعض المسئولين الأمريكيين فى مناسبات مختلفة ، والتى كانت تحمل معنى أن القوات الأمريكية جاءت لتبقى حتى ينتهى العدوان العراقى على الكويت أو مطالبة السعودية لها بالعودة . وكان الغرض من ذلك إفهام صدام حسين ومؤيديه بأنه لا فائدة من محاولاتهم إخراج هذه القوات قبل أن تحقق الأهداف التى جاءت من أجلها .

ثانيا : أنه حتى فى حالة ما إذا كان السبب الرئيسى لموقف الولايات المتحدة من هذه الأزمة هو مجرد حرصها على مصالحها (المشروعة) . وطالما أن تحقيقها لهذا الهدف يتفق مع مصالحنا المتمثلة فى تأمين حقوقنا ومصالحنا والمصدر الرئيسى لدخلنا والحفاظ على أمننا بطرد المعتدى وإزالة التهديد .

الأزمة وعلاقتها بالتواجد الدولى بشكليه العسكرى والإعلامى على السواء . وذلك على سبيل التمهيد للتعرض فيما بعد لمضمون هذه الملاحظة أو الملاحظات .

فنحن نعرف بالطبع أن عدوانا عراقيا آثما وقع فجر الثانى من أغسطس الماضى على دولة الكويت ، وكاد هذا العدوان يتطور إلى عدوان أكبر يشمل دولا خليجية أخرى تأتى فى مقدمتها المملكة العربية السعودية ، لولا يقظة قيادتها التى أفسدت على المعتدى تدبيره الآثم .

ونعرف أيضاً أن هذا العدوان لم يكن حربا بمعناها المعروف بين الدول ، حيث لم يسبقه خلاف (حقيقى) بين الدولتين أو نزاع أو صراع طال أمده واستعصى حله بالطرق السلمية والقانونية المعتادة بحيث تطور حتى وصل إلى مرحلة التحاور بالسلاح . بل كان مجرد عملية نهب وسلب دنيئة وسطو مسلح غادر وبلطجة لا تختلف فى أى جانب من جوانبها عن تلك التى كان يمارسها قطاع الطرق والقراصنة فى العهود الغابرة .

ولقد أدرك المجتمع الدولى أن هذا العمل يمثل انتهاكا صارخا للقوانين والأعراف وخرقا واضحا لميثاق الأمم المتحدة وتحديا خطيرا لسياسة الوفاق التى عمل العالم طويلا من أجل تحقيقها وبدأ يجنى أولى ثمارها من خلال اتفاقات للحد من التسلح ونبذ للحرب الباردة . خاصة وأن العالم لم ينس بعد ما ذاقه من ويلات حربين عالميين مدمرتين خلال النصف الأول من هذا القرن ، وكانت آخرهما بسبب التسامح أو التباطؤ فى مواجهة تصرفات مشابهة لحاكم مجنون فتنته قوته وأعمته أطماعه .

لذا فقد جاءت الإدانة الدولية للعدوان العراقى حاسمة وواضحة وشبه إجماعية ، سواء من خلال قرارات مجلس الأمن العشرة التى صدرت بهذا الخصوص فيما لايجاوز الثلاثة أشهر الأولى من تاريخ بدء وقوع هذا العدوان ، أو من المؤتمر الإسلامى أو مجلس الجامعة العربية أو مؤتمر القمة العربى الطارىء بالقاهرة .

ونحن نعرف كذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية عندما أبدت تفهما عميقاً لأبعاد الخطر الذى يمثله العدوان العراقى واستجابت لطلب الدول الصديقة التى تعرضت للعدوان بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إنما كانت

فاننى لا أرى فى ذلك شيئا معيبا سواء بالنسبة للولايات المتحدة أو بالنسبة لدول الخليج . بل إننى أرى فى هذا قمة الإحساس بالمسئولية والنموذج الأمثل للتعاون الدولى المتبادل على أساس المصالح المشتركة .

ثالثا : أن كون الولايات المتحدة قد جاءت فقط لتأمين مصالحها يعنى فى الوقت نفسه النفى القاطع والحاسم للاتهامات التى يوجهها البعض للرئيس بوش بأنه زج بالشباب الأمريكى إلى ساحة الموت من أجل العرب أو دفاعا عن رفاهيتهم .

وهكذا يصبح واضحا أنه سواء كان هدف الولايات المتحدة هو تأمين مصالحها (المشروعة) ، أم الانتصار للمبادىء والمثل والمحافظة على مكتسبات الحضارة البشرية وإنجازاتها ومناخ الوفاق الدولى . فإن الحقيقة التى يمكن استخلاصها من كل ذلك ، هى أن لكل من الولايات المتحدة ودول الخليج ، بل وللعالم بأكمله ، مصلحة مشتركة فى التصدى للعدوان العراقى وإزالة آثاره ومنع تكراره . وليست المصلحة لطرف واحد دون آخر . ومن ثم فلا مجال للمزايدة أو محاولة الوقيعة والتسبب المتعمد أو غير المتعمد فى الإضرار بالموقف الدولى الحاسم تجاه العدوان من خلال إثارة المشاكل والحساسيات التى لا مبرر لها .

وهنا لا يسع المرء الا أن يتساءل عن الهدف من إثارة بعض وسائل الإعلام الغربية لمسائل وموضوعات بعيدة كل البعد عن أحداث الأزمة التى تعيشها المنطقة ويعيشها العالم أيضا . والتى جاءوا هم أنفسهم لمتابعتها وتغطيتها . خاصة وأن أولئك الذين يكتبون مثل هذه التقارير والمقالات يحقنونها بعبارات الغمز واللمز والتلميحات التى تتسم بالصلف والكبرياء والتعالى المستند إلى أسس ثقافية أو حضارية غربية .

فلقد درست ماجستير فى الحكومات الأمريكية وتعرفت على كيف يعمل هذا النظام الفريد الجيد ، وهو جيد فعلا لأن الشعب الأمريكى هو الذى اختاره وارتضى هذا النظام بمثل ما ارتضى الشعب السعودى نظام حكمه . ولا مجال عنا لعقد المقارنات بينهما حيث أن كلا منا يعتقد أنه يتخذ فيها الجانب الأفضل . ولكن يكفى أن استشهد هنا بجملة ممتازة تضمنها إعلان الاستقلال الأمريكى نفسه تقول ما معناه « إن الشعوب هى التى ترتضى نظم الحكم التى تريدها وتتواءم معها وليس تلك التى تراد لها من قبل الغير » . . أما عن دور

المرأة فى المجتمع العربى السعودى ، فمع أن هذا الدور قد لا يكون مفهوما من الغربيين ، إلا أنه بالنسبة لنا ملائم كل الملاءمة ، لأنه نابع من ديننا وتاريخنا وقيمنا التى تربينا عليها ونشأنا فى ظلها .

وعندما ذهبت إلى الولايات المتحدة دارسا ، وجدت أن الكثير من أنماط الحياة والعادات الاجتماعية للشعب الأمريكى تختلف اختلافا جذريا عما ألفناه فى بلادنا ، لدرجة كانت تصيب الكثيرين بالذهول . غير أننى كنت ، لحسن الحظ ، على قدر من الدراية المسبقة بوجود مثل هذه الاختلافات . لذلك فقد كنت أستطيع الفصل بين عاداتى وتقاليدى التى اكتسبتها من بيئتى الشرقية وتراثى العربى الإسلامى ، وبين تلك السائدة فى المجتمع الأمريكى الذى لا تشاركنا غالبيته العظمى الدين والتاريخ والتراث الثقافى والاجتماعى .

وانطلاقا من هذه القناعة ، فلم أكترث مثلا بكثرة المراقص والأماكن الإباحية التى تعج بالفتيات العاريات . ولم أعبأ بارتفاع معدل الجريمة بدءا من الاعتداء على النفس ومرورا بالسرقة بالإكراه وانتهاء بالاغتصاب الذى لا يستثنى أحيانا كبار السن والأطفال . كما لم أدهش للتفكك الأسرى والعائلى ولم أتألم لتفشى ظاهرة انتشار معاقرة الخمر وتعاطى المخدرات على أوسع نطاق بالرغم من المآسى الأخلاقية والاجتماعية والأمنية التى تسببها هذه الممارسات المنحرفة .

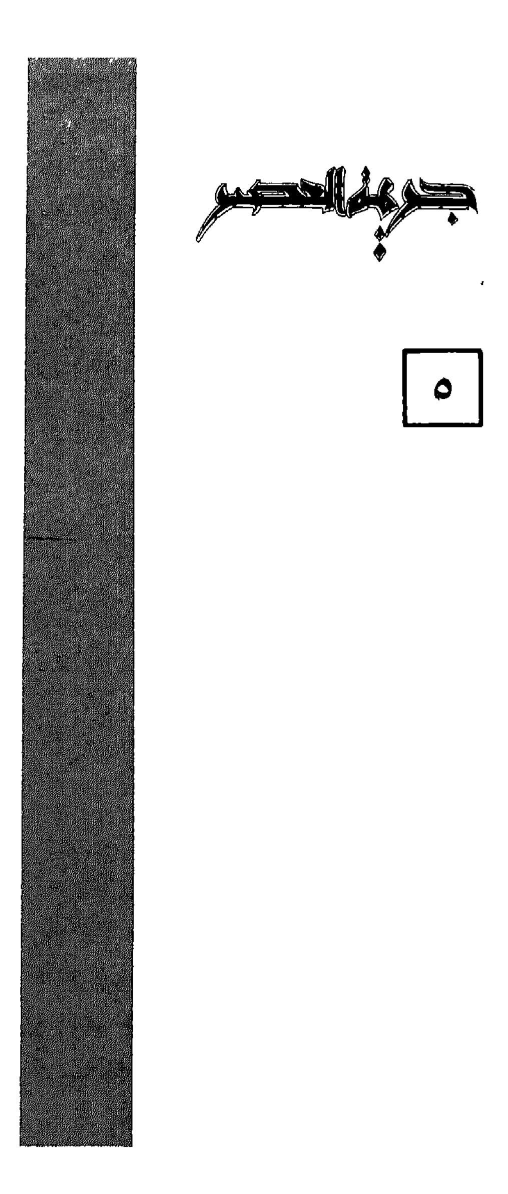
ولم يكن هذا الفصل بين مشاعرى الشخصية وما أراه أمامى على أرض الواقع من أمور يرفضها تكوينى النفسى والوجدانى أمرا سهلا وميسوراً . فلقد كانت هناك بعض السلوكيات التى صدمتنى بشدة ولم أستطع أن أنساها حتى اليوم . مثل منظر الطالب الذى رأيته فى قاعة المحاضرات عندما دخلتها للمرة الأولى ، وقد جلس ممددا ساقيه فوق طاولة الدراسة أمامه وكلتا حذائيه مسددتان فى مواجهة الأستاذ المحاضر مباشرة . وهذا بالطبع واحد من الأمور التى يصعب على إنسان مثلى أتى من مجتمع شرقى أن يفهمها ، أو يتصور إمكانية وجود تفسير يبررها تحت أى مصطلح علمى أو نظرية تربوية . .

ومع ذلك فلم أحاول قط مناقشة أى من هذه الأمور أو السلوكيات ولم أعقد مقارنة بينها وبين العادات والتقاليد التى ألفتها فى بلادى . بل لقد بذلت جهدى لكى أتعرف على الولايات المتحدة وأتعامل معها كما هى ، لا كما أريدها أنا . وقد ساعدنى على ذلك خلفيتى الدينية ومضمون القاعدة القرآنية

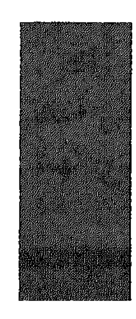
التى تلخص أفضل أساليب التعايش بين الشعوب المختلفة ، والتى تقول « لكم دينكم ولى دين » . أى كونوا كما تحبون وسأكون أنا كما أريد دون صدام بيننا أو محاولة أحدنا فرض مرئياته على الآخر ، حتى ولو من خلال السخرية . وليتحمل كل نتيجة اختياره . . لذلك فقد قصرت اهتمامى على البحث عن الجوانب الإيجابية النافعة التى راقتنى فى المجتمع الأمريكى ، وهى للحق عديدة ولا أنكر أننى استفدت كثيرا مما تعلمته خارج فصول الدراسة .

وقبل أن أنهى حديثى هذا أود أن يشاركنى القارىء بعض فقرات من الخطاب الذى أرسله شاب غربى كان يعيش فى المملكة العربية السعودية يدعى (فان ريبل) إلى جريدة سعودى جازيت ، التى نشرته فى عددها الصادر يوم الجمعة ١٦ نوفمبر الحالى ، وقد جاء فيه « الآن أستطيع أن أفهم طريقة الحياة فى الدول الأخرى بشكل أفضل . فلقد أثرت حياتى فى السعودية على تفكيرى من عدة جهات بحيث أصبحت متفتح الذهن للكثير من الأفكار . وعندما غادرت جدة شعرت بأننى فقدت أصدقاء كثيرين ، ولكننى اكتسبت إدراكا عميقا بأن هناك حياة أخرى وأفكارا مختلفة عن تلك التى فى بلادى ، والأكثر من ذلك العديد من الذكريات العظيمة » . . .

ولعل فى هذه السطور البسيطة المعبرة دلالة واضحة وعميقة لأولئك الذين يأتون إلى بلادنا وهم مفعمون بالقناعة أن ثقافتهم وأساليب حياتهم ونظمهم السياسية والاجتماعية فوق مستوى المقارنة وأنها النموذج الذى يجب أن يحتذى ويطبق على كافة البشر فى كل أنحاء العالم . . فإلى هؤلاء بالذات أهدى كلمات فان ريبل التلقائية الصادقة □



خواطر اللحظات الحاسمة



أثيرت فى إحدى مقالاتى منذ سنوات غير قليلة ، إلى ظاهرة ، أوحالة نفسية تعرف باسم (De Javu) . وهى حالة قد تنتاب المرء حين يتملكه شعور غامض بأنه سبق وأن مر بنفس الظروف أو تواجد فى نفس المكان أو رأى نفس الأحداث التى يشهدها بنفس الترتيب والتواتر ، بل وربما أيضاً بنفس النتائج .

قفزت إلى ذهنى هذه المعانى عندما كنت أقلب الفكر فى النازلة التى ألمت بعالمنا العربى منذ الثانى من أغسطس الماضى ، وما عساه أن يكون عليه مستقبل هذا العالم وما ينتظر أن يئول إليه مصيره نتيجة للعمل الأرعن الطائش غير المسئول الذى أقدم عليه الرئيس العراقى صدام حسين باحتلاله للكويت .

ومع أن بواعث الألم كثيرة ، ودواعى الدهشة والذهول أكثر منها ، والتساؤلات الحائرة أكثر وأكثر ، إلا أننى آثرت أن أقصر اهتمامى على سؤالين اثنين فقط ، لعلنى أستطيع من خلال التركيز عليهما العثور على إجابة شافية أو تفسير مقنع لهما .

والسؤال الأول الذى يحيرنى هو : كيف حسبها صدام حسين ؟ ، وكيف تصور أنه يستطيع بهذه البساطة وبمثل هذا الأسلوب الهمجى الفج أن يبتلع دولة مستقلة وفى هذا الوقت بالذات الذى يشهد انتعاش الأمل فى نبذ الصراعات والحروب بأنواعها الساخنة والباردة ، لكى ينعم العالم بفترة من الهدوء والسلام والأمن ، ويتفرغ للبحث عن حلول لمشاكل البيئة والطاقة وتوفير الغذاء ومكافحة الأمراض والأوبئة ؟ .

أما السؤال الثانى فهو : لماذا لم يستوعب صدام حسين دروس التاريخ ولم يتعظ بالعبرة فيما انتهى إليه العديد من أمثاله الطغاة الذين تضخمت طموحاتهم وأطماعهم وحاولوا التوسع وحل مشاكلهم على حساب غيرهم فلم يبوءوا إلا بالخسران ولعنة الله والناس أجمعين .

وأذكر بهذه المناسبة أننى قمت بزيارات متعددة لبغداد ، لأداء بعض المهام الرسمية . وكان قد لفت انتباهى ذلك التردى الشديد فى مستوى معيشة المواطنين العراقيين وتدهور الخدمات فى جميع مرافق الدولة بصورة لا تتناسب مطلقا مع ما يمتلكه العراق من حضارة وثروات ضخمة ، نفطية وزراعية وبشرية ، لا تتوفر مجتمعة لأى دولة عربية مجاورة .

غير أننى كنت أحاول إقناع نفسى دائما بأن هذه طبيعة الأمور وواحدة من إفرازات الحرب التى كان العراق يخوضها ضد إيران فى ذلك الوقت . وإن كان قد آلمنى بشكل خاص حالة الخوف والفزع التى كنت أقرأها بوضوح فى عيون الناس هناك . ليس من هول الحرب ، وإنما من الأجهزة الرهيبة التى يستخدمها الرئيس العراقى ضد الشعب ، مثل جهاز « حنين » وجهاز « آمن » . وهى أجهزة خاصة بالأمن والاستخبار الداخلى . . (ولاحظ المسميات ، خصوصا جهاز « حنين » الذى أنشأه وأطلق عليه هذا الاسم ، الرئيس العراقى نفسه ، على الرغم من أن مدلوله بعيد كل البعد ، بل ومناقض تماماً لواقع المهام التى يمارسها هذا الجهاز) .

وخلال إحدى زياراتى لبغداد فى السنة الأخيرة من الحرب العراقية الإيرانية ، جرى بينى وبين بعض الشخصيات العراقية المرموقة التى التقيتها على مائدة الغداء حديث ودى وشخصى قلت لهم خلاله : لو أن الرئيس العراقى ركز اهتمامه بعد انتهاء الحرب على تحقيق الرفاهية للشعب العراقى

بنفس الحماس ونفس الطاقة التى يبذلهما الآن فى الحرب ، وهى الحرب التى قال عنها الرئيس العراقى نفسه ، إنها حرب مدمرة جرى خلالها الدم شلالات وأنهاراً ، فسوف يكون هذا جزاء عادلا للشعب العراقى وتعويضا مناسبا عن سنوات المعاناة والحرمان الطويلة التى تحملها فى صبر عجيب ، وسوف يكون المواطن العراقى وقتئذ من أسعد مواطنى الخليج إن لم يكن من أسعد المواطنين العرب على الإطلاق .

كذلك قلت لهم أيضاً ، أنه يتحتم على الرئيس العراقى أن يتعظ من عبر التاريخ بألا يحاول تهديد أو المساس بأى دولة عربية مجاورة صغيرة كانت أم كبيرة . خصوصا وقد رأى ولمس بنفسه كيف ساندته هذه الدول فى محنته ، وأن يطمئن الأشقاء والأصدقاء من دول الخليج بأنه لن يكون ذلك الجاحد أو الغادر بهم فى يوم من الأيام ، ومهما بلغت قوته .

وللحقيقة ، فإن أولئك المسئولين الذين كنت أتحدث إليهم ، كانوا يبدون موافقتهم وتفهمهم لكل ما ذهبت إليه ، بل ويؤكدون أن الرئيس العراقى نفسه يدرك ذلك جيدا ويؤمن بحق كل دولة عربية فى ممارسة سيادتها واستقلالها وتأمين مصالحها مهما صغر حجمها ، وأن هذا هو ما أشار إليه فى العديد من المناسبات قائلا : « لو أن العراق اعتدى على إحدى الدول العربية ، فعلى الأمة العربية بكاملها أن تجيش الجيوش لردعه » ! .

أقول إنه على الرغم من كل هذه التأكيدات والتطمينات ، فإن ما حدث يوم الثانى من أغسطس الماضى أعطى الدليل القاطع على أنها كانت سرابا وخداعا ووهما لا أساس له فى الواقع . فمع أن ما فعله بعدوانه على الكويت ومحاولته التمادى بالعدوان على المملكة العربية السعودية أيضا هو من قبيل الأمور البالغة الغرابة والبعيدة عن كل التوقعات ، إلا أن الأكثر غرابة وبعدا عن التصور هو إقدام الرئيس العراقى على التنازل لإيران عن كل مطالبها التى عاند وحارب من أجلها ثمانى سنوات وأضاع فى سبيلها مالا حصر له من الأرواح والأموال . وذلك مقابل تحييد إيران فى مغامراته الجديدة ورشوتها لعدم الانضمام إلى القوى المناهضة لأطماعه . الأمر الذى لا يمكن وصفه بأقل من أنه سفالة سياسية ، إذا ما أردنا أن نتجنب وصفه بالبغاء السياسى . .

وفى إطار المحاولات المستمرة التى بذلها ويبذلها حتى الآن ، العديد من المفكرين والمتخصصين فى مجالات التحليل السياسى والاجتماعى والتاريخى ، لفهم الأسباب والدوافع (الحقيقية) التى حدت بالعراق إلى اجتياح دولة الكويت على هذا النحو المفاجىء الذى أذهل العالم فجر يوم الخميس الثانى من أغسطس الماضى . اختلفت الآراء وتعددت الاجتهادات حول تعليل هذه الظاهرة الغريبة التى شذت عن كل قواعد السلوك المألوفة فى مجال العلاقات الدولية ، خاصة فى هذه المرحلة التاريخية الدقيقة التى تشهد تحولا جذريا نحو نبذ الصراعات والحروب .

غير أن الأمر الذى أجمعت عليه الآراء هو أن العلة تكمن فى شخصية الرئيس العراقى نفسه . ذلك أنه ثبت بالأدلة القاطعة أن هذا الرجل وصل إلى حكم بلاده دون أى تأهيل علمى أو سياسى ، وإنما عبر سلسلة من المؤامرات المقترنة بالعديد من عمليات الإرهاب والتصفية الجسدية لمعارضيه أو لمن تصور أنهم قد يشكلون فى أى وقت من الأوقات عقبة فى طريقه للوصول إلى الحكم .

كما تمكن الرئيس العراقى من إحكام قبضته على أجهزة الدولة ومؤسساتها باستخدام ما يجيده من أساليب إجرامية بالغة القسوة انعدم فيها أى رادع من ضمير أو وازع من دين أو أخلاق ، وكان القتل في نطاقها يقع لأتفه الأسباب ويشكل (وجبة) يومية للرئيس (كما يسميها هو نفسه) . ناهيك عن التعذيب وامتهان كرامة الإنسان العراقى بتعريضه لأبشع أشكال الذل والإيلام الجسدى والنفسى على حد سواء .

وكان طبيعيا أن يتمخض هذا الحكم الوحشى المجرد من كل ملامح الانسانية عن ظهور فئات من المواطنين يسيطر على بعضها الرعب القاتل ويدفعها الخوف الشديد إلى الانقياد التام والاستسلام الكامل . وأخرى يحكمها الجشع والطمع والنزعة الفردية الانتهازية للانتفاع بالنظام عن طريق التملق والنفاق والخيانة والعزف فقط على الأوتار التى يطرب لها الرئيس الرهيب .

ومن هنا جرت محاولات كثيرة للتعرف على عناصر مكونات شخصية الرئيس العراقى ، وكان السبيل إلى ذلك بالطبع إجراء دراسات تحليلية لظروف نشأته وتتبع مراحل حياته . ولقد اختلف المتخصصون حول تحديد

نوع المؤثرات المسيطرة على أفكار وسلوكيات الرئيس العراقى ، والتى تبدو غير منطقية وغير خاضعة لأى من المعايير العلمية أو الاعتبارات الموضوعية المتعارف عليها فى مجال السلوك البشرى .

ولقد ذهب البعض فى تفسير سلوك الرئيس العراقى الشاذ هذا إلى القول بأنه شخص عبقرى استطاع بذكائه ودهائه أن يحكم قبضته على شعب تعد السيطرة عليه وترويضه من أصعب الأمور ، بشهادة الحجاج بن يوسف الثقفى منذ أكثر من ألف عام . بينما يؤكد البعض الآخر أن الرئيس العراقى ليس إلا شخصا عاديا لا يتمتع بأى قدر من الذكاء ، بدليل أنه فشل فشلاً ذريعا فى معظم القرارات المصيرية التى اتخذها خلال فترة حكمه ، وأيضاً بدليل الانهيار الشديد الذى أصاب العراق على يديه فى جميع المرافق وعجزه التام عن الاستفادة من تجاربه والتعلم من التاريخ ، بالاضافة إلى سوء تقديره الواضح للأمور ، مثل حربه ضد إيران ودعمه للعماد عون المنشق على الشرعية اللبنانية واحتضانه لعصابات الإرهاب الدولية ، ثم أخيراً عدوانه على الكويت .

أما بالنسبة للأمور التى استطاع الرئيس العراقى أن يحقق فيها نجاحا حقيقياً ، فتنحصر فى مقدرته العجيبة على قمع الشعب العراقى وإخضاعه لإرادته المنفردة باستخدام العنف والبطش والإرهاب وتحويل هذا الشعب إلى أداة لأطماعه ووقود رخيص لنزواته وأحلامه المريضة وتطلعاته لدخول التاريخ كزعيم للعالم العربى والأمة الإسلامية . . . وكما هو واضح ، فإن مثل هذه الإنجازات لا تتطلب أى قدر من الذكاء أو العبقرية ، وإنما تحتاج إلى مواصفات أخرى يمتلكها الرئيس العراقى وحده ، ولسنا فى حاجة لذكرها هنا بالتفصيل . . .

إن الأمر المؤكد ـ فى رأى هؤلاء الخبراء ـ هو أن الرئيس العراقى يعانى خللا فى توازنه العقلى والنفسى والوجدانى ، كنتيجة لتراكمات من عقد نفسية ترسبت فى أعماقه منذ أيام طفولته المبكرة ، وانعكست ـ على سبيل التعويض ـ فى صورة شخصية سيكوباتية مقترنة بإحساس متضخم بالذات .

وفى هذا الصدد يقول البروفيسور جيرالد بوست إخصائى الأمراض النفسية بجامعة جورج واشنطن : إن شخصية صدام حسين ، هى شخصية

ذهانية تتسم بجنون العظمة النرجسية وعدم الاتزان الانفعالى الذى يجعله عاجزاً عن الولاء لأى فرد أو جماعة أو شعب أو أمة . الأمر الذى يفسر ميله الشديد إلى المغامرة ورغبته الطاغية فى ممارسة الإذلال والعدوان .

ويستطرد البروفيسور بوست قائلا : إن صدام عانى كثيراً بسبب الصراع العنيف بين دوافعه السادية وأحلامه المبالغة فى الطموح . **الأمر الذى يجعله غير قادر على التمييز بين الممكن والمستحيل** . فلقد أخضع الشعب العراقى بشكل غير محدود ـ تعبيرا عن نزعة الثأر الكامنة فى أعماقه ضد الحرمان الذى عاناه فى طفولته ـ وهذا يفسر اتخاذه قرارات خطيرة تتقاطع مع الحقيقة والواقع الذى اضطربت صلته به تماماً . **وهذه إحدى الصفات البارزة للشخصية الذهانية** التى يعانى صاحبها من « خداع الحواس » ، حيث تبدو له الأشياء على غير حقيقتها .

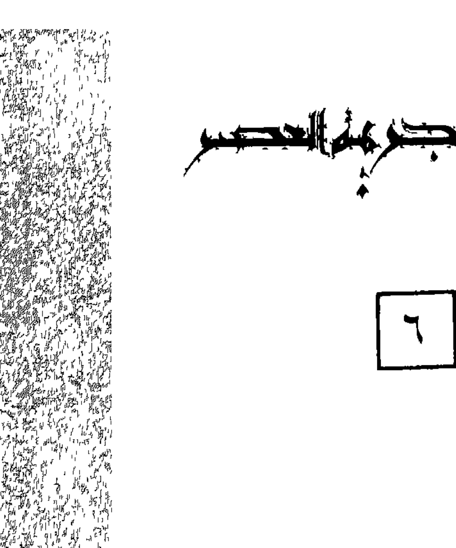
ولعلنا نستطيع هنا أن نفهم هذا المعنى الذى يقصده البروفيسور بوست بصورة أوضح ، إذا استعرضنا المثال التالى ، وهو عبارة عن لقطة من لقاء أجرته مندوبة تليفزيون أمريكية مع الرئيس العراقى مؤخراً سألته خلاله عن سبب ما لاحظته من وجود عدد هائل يصعب حصره من صوره الشخصية بشتى الأزياء وبمختلف الأحجام معلقة فى كل حى وفى كل ميدان وفى كل شارع من شوارع بغداد ، بل وفى كل مؤسسة وكل حانوت وكل بيت من بيوتها ؟ .

ولقد جاءت إجابة الرئيس العراقى عن هذا السؤال كالآتى : « إن الشعب العراقى هو الذى يحب رؤ ية هذه الصور وبهذه الطريقة فى الميادين العامة . . لأنه يعلم أن كل رغيف يأكله المواطن يأتى نصفه من صدام ، وكل ثوب يرتديه نصفه من صدام ، ولأن صدام هو العراق . . . لذا فإننى لا أستطيع أن أمنع إنسانا يحبنى من أن يعلق صورتى . وإذا فعلت ذلك فهذا ينم عن قلة ذوق . . . » !

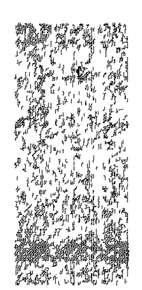
إن علماء النفس وهم يتابعون تصرفات صدام حسين وأفعاله ، يعتقدون أن هذا الهوس الذى يبديه من أجل رؤ ية صوره فى كل مكان ، إنما يعكس فى الواقع أزمة الهوية التى يعانى منها صدام حسين بمثل ما يعانى منها ، وبدرجات متفاوتة ، أولئك الطغاة الذين وصلوا إلى مواقع السلطة فى

بلادهم عن طريق العنف والإرهاب والتخويف وبأساليب غير مشروعة ، وربما أيضاً غير شريفة .

إن العدوان والظلم فى حد ذاته أمر مؤلم للنفس البشرية ومحرم فى جميع الشرائع والأديان . غير أن أكثر أشكال الظلم قسوة وبشاعة ، هو ذلك الذى يقع من الأخ أو الصديق . بمعنى أن يؤتّى المرء ممن لا يتوقع أو من حيث « مأمنه » كما يقولون ، ولذا فإنه يطلق عليه فى هذه الحالة « الغدر » أو « الخيانة » . . وهذا يذكرنى فى نهاية الحديث بالدعاء الذى يقول : « اللهم اكفنى شر أصدقائى . . أما أعدائى فأنا كفيل بهم » . . ولعل الحكمة هنا واضحة ولا تحتاج لأى تفسير □



نعم كيف حسبها صدام ولماذا ؟



قدر

ما يسعدنى رضاء العديد من القراء الكرام عن ما أكتبه ، وهى اجتهادات متواضعة تتناول إلى حد كبير الأحداث السياسية المعاصرة ، مستندا إلى المعلومات المتاحة للجميع وعن طريق الاستقراء والتحليل وقراءة أكبر قدر ممكن من المعلومات فى دائرة واسعة حتى أستطيع أن أقدم للقارىء الكريم شيئا جديدا . وهذا أمر عودنى عليه أستاذى البروفيسور رالف بريبانتى خلال دراستى فى الولايات المتحدة ، والذى كان يقول لى دائما : إذا أردت أن تكتب شيئا ، ومهما كان الموضوع الذى تريد أن تكتب فيه ، فلابد أن يكون ذلك ضمن هيكلية معينة فى تركيبة المقال ، والأهم من ذلك أن تقدم جديدا للقارىء ، وحبذا لو أمكن أن تحتفظ بقدر معين من الالتزام لذاتك بعدم كتابة غير المفيد . ولذلك فإن هذا هو الأمر الذى أرجوه ، المحافظة على أدنى قدر من المستوى .

أقول ، إن بعض الذين قرأوا مقالى فى الأسبوع الماضى ، قالوا لى أن موضوعك كان مبتورا إلى حد ما ، إذ أن من بين العناصر التى تعرضت لها سؤال عن : (كيف حسبها صدام حسين ، فيما يتعلق باحتلاله للكويت) .

ولكنك لم تتطرق إلى ذلك بالتفصيل لتبين لنا ما هى وجهة نظرك فى هذا الموضوع .

وللحق أقول إن لهذه الملاحظة وجاهتها ، وإن كان هدفى الأساسى من المقال المذكور هو إبراز معنيين : الأول هو أن العديد من رؤساء الدول ، فى حقبة تاريخية معينة ، يعجزون عن الاستفادة من عبر وعظات التاريخ . حيث يبلغ بهم الصلف والكبرياء والغرور حدا يتصورون معه أنهم قادرون على خداع العالم بأكمله . بينما هم فى الواقع لا يخادعون سوى أنفسهم ، مثلما فعل الرئيس العراقى صدام حسين ، بدليل فشله وخيبته فى أهم القرارات المصيرية التى اتخذها طوال فترة حكمه .

أما المعنى الثانى الذى رميت إليه فى المقال المذكور ، فهو مشاركة القارىء فى محاولة للتعرف على المعطيات التى أوحت لصدام حسين ، أو على الأصح سولت له الإقدام على مغامراته الخاسرة بصفة عامة وعدوانه على الكويت بصفة خاصة . وأظن أننا خلصنا من ذلك إلى أن الرجل ـ بالدليل العلمى وشهادة المختصين فى الطب النفسى ـ مصاب بما يعرف بالشخصية الذهانية ، وأن من أبرز صفات المصاب بهذا المرض أنه يرى الأشياء على غير حقيقتها ويكون غير قادر على التمييز بين الممكن والمستحيل لأنه يعانى من خداع الحواس .

أما عن (كيف حسبها صدام حسين ، من الناحية الاستراتيجية) ، وهذه تشتمل على النواحى السياسية والعسكرية والنفسية والجيوبوليتيكية ، وكذلك من الناحية الإعلامية والناحية الزمانية والمكانية ، فهذا ما سوف أحاول أن أتناوله هنا فى موضوع حديث اليوم بالإيجاز الذى تمليه طبيعة العمل الصحفى مع المحافظة على عدم الإخلال بالمعنى قدر الامكان .

فمما لا شك فيه أن فعلة الرئيس صدام حسين باحتلاله للكويت ، هى عملية محسوبة منذ زمن غير قصير بشكل مدروس وبعناية فائقة وتنفيذ مرحلى متتابع عبر تحرك واسع على الصعيدين العربى والإسلامى . فلقد أخذ العالم بأكمله على غرة . ذلك لأنه بكل المعايير والأعراف العربية والغربية أو حتى فى الشيوعية وغيرها ، لم يكن هناك من يتوقع أن يكون العرفان بالجميل من جانب صدام حسين على هذا النحو . وسأحاول أن أتناول هذا الموضوع من خلال النقاط الرئيسية التالية :ـ

أولا : اعتمد الرئيس العراقى منذ البداية ـ لضمان تخطيطه الدنىء ـ تخدير بعض الدول والتآمر مع بعضها الآخر . ولقد تصور أنه يستطيع من خلال هجومه المباغت الغادر على الكويت واحتلالها ومن خلال تحييد مصر بواسطة مجلس التعاون العربى ، السيطرة على منطقة الخليج بكاملها أو حتى امتلاكها . وذلك بتطوير هجومه إلى المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية بينما ينطلق عملاؤه لتهديدها من الجنوب ومن الحدود الشمالية الغربية . . .

ولقد قرأت فى أكثر من مصدر عن تواجد بعض القوات العراقية ، وخصوصا الجوية ، فى اليمن وفى الأردن . . بل وإن الشىء الموثق تحت يدى هو أن الطيران العراقى الحربى كان يقوم بطلعات من المطارات الأردنية خلال عام ١٩٨٩ م . ويبدو لى ، وهذا استقراء شخصى بحت ، أن الرئيس العراقى كان يريد من خلال عملياته العسكرية هذه وترتيب أوضاع معينة بواسطتها ، السيطرة على المنطقة الممتدة حتى مضايق هرمز . وذلك لكى تتم له السيطرة على أكثر من ٦٠ بالمائة من المادة الحيوية الاستراتيجية العالمية (البترول) وكذلك التحكم فى منافذ تصديره ، وأن هذا فى تقديرى يكمل مرحلة سابقة فى المخطط ، التى دفعت لاستعجال إتمام وحدة شطرى اليمن بحيث تتم قبل موعدها المحدد أصلا بنهاية شهر نوفمبر ١٩٩٠ م . وذلك لكى تكون سيطرة العراق على مضيقى هرمز فى الخليج وباب المندب فى البحر الأحمر متكاملة وفعالة ومؤثرة .

ثانيا : من الناحية العسكرية : أقول ، وبإيجاز مقصود ، إن الرئيس العراقى سعى خلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية إلى توجيه الدعم الخليجى الذى تلقاه بسخاء لإقامة العديد من الصناعات العسكرية الهامة التى تقع ضمن ما يسمى « الأسلحة الاستراتيجية ذات القدرة التدميرية العالية » . ومع أن بعض أنواع هذه الأسلحة محرم دوليا ، إلا أنه يبدو أن القاموس الذى يتعامل من خلاله الرئيس العراقى لا توجد به كلمات مثل « محرم » أو « أخلاقى » أو « دينى » . . إلخ .

لقد ركز الرئيس العراقى اهتمامه على تطوير الصناعات الحربية الكيماوية بتعاون ألمانى شرقى وتم له تكوين قدرة عراقية محلية لإنتاج محدود من الصواريخ والأبحاث المستمرة لتطوير تلك القدرات .

كذلك تم تكوين سلاح جوى لا بأس به ، عماده طائرات ميراج الفرنسية وميج الروسية المتقدمة مثل (ميج ٢٣) ، (ميج ٢٥) ، وأيضا سوخوى . كذلك لديه قدرة محدودة لقاذفات القنابل من الطراز القديم . كما استطاع أيضا تكوين سلاح مدرعات من الدبابات والمدفعية . أما محاولات العراق لتطوير قدراته النووية ، فلن أتطرق لها هنا لسببين : الأول هو أن هذه القصة تحتاج للمزيد من البحث والتقصى . والثانى أن معظم أطرها العريضة معروفة للجميع .

ثالثا : بعد أن استعرضنا بإيجاز التخطيط العسكرى العراقى ، أود أن أتطرق هنا إلى رديف ذلك التخطيط من ناحية الأهمية والخطورة . ذلك هو التخطيط الإعلامى الذى سأتناوله أيضا بإيجاز . فلقد سعى الرئيس العراقى منذ البداية إلى امتلاك قدرة هندسية إذاعية فائقة القوة ، حيث تم فى هذا الإطار بناء إذاعة تعد من أقوى الإذاعات العالمية ، قوامها عشر مرسلات طاقة كل منها ٥٠٠ كيلووات . وهو يستخدم العديد منها حاليا للتشويش على الإذاعات العالمية مثل (صوت أمريكا) و (بى . بى . سى) وغيرها ... مع إغراق المنطقة ببث عراقى غث كثيف ومتصل .

وكما سبق وأن ألمحت ، فان الرئيس العراقى يستعين بخبرات ألمانية شرقية فى مجال التخطيط الإعلامى ، وهذا واضح كل الوضوح من خلال الأسلوب الإعلامى العراقى (كثافة إعلامية تصل إلى حد الإغراق ، بصرف النظر عن انعدام مصداقيته وتفاهة المضمون + زخم مستمر من المعلومات المضللة والأكاذيب التى يسخر منها حتى الأطفال) . وبالطبع لا ننسى هنا الشق الأهم فى العملية الإعلامية العراقية ، وهو منع الشعب أو عزله تماما عن الاستماع لأى صوت غير صوت الأبواق العراقية . وهذا هو ما مارسه العراق خلال سنوات حربه مع إيران كعملية ذات شقين : أولهما إجراء غسيل دماغ من خلال سيل منهمر وتيار لا ينقطع من المعلومات الكاذبة ، والثانى عزل الشعب العراقى عن بقية مصادر الأخبار الآتية من خارج العراق .

وعلى صعيد آخر كان العراق قد بدأ حملة إعلامية فى العديد من الدول العربية تواكبت مع بداية العمل فى مجلس التعاون العربى وشملت اليمن والسودان والأردن بالدرجة الأولى ، بالإضافة إلى بعض دول الشمال الإفريقى . وتمثلت تلك الحملة فى الرشوة واستقطاب الأقلام المأجورة

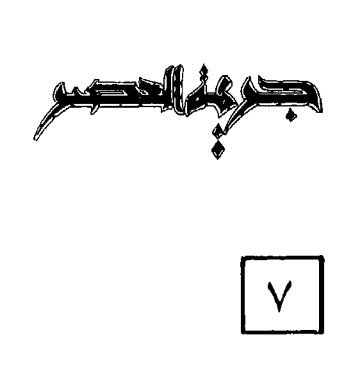
والمحتاجة (وما أكثرها فى هذه المنطقة) وذلك من خلال تنظيم دعوات للصحفيين الشبان لزيارة العراق مجانا ثم إغداق الهدايا عليهم ، بدرجة قدرها بعض المطلعين على مثل هذه الأمور بما يربو على حمولة ثلاث طائرات من طراز جامبو سنويا . وكذلك عن طريق المنح الدراسية والندوات والمهرجانات وغيرها . الأمر الذى جنى العراق ثماره بعد احتلاله للكويت وحتى الآن ، وإن يكن بدرجات متفاوتة فيما بين المنطقتين الأولى والثانية السالف الإشارة إليهما . ولا يفوتنى أن أشير هنا إلى أن النظام العراقى استغل الأيديولوجية البعثية لإغراء بعض الدول وعلى الأخص قياداتها ، لكى تدور فى فلكه على النحو الذى نراه الآن .

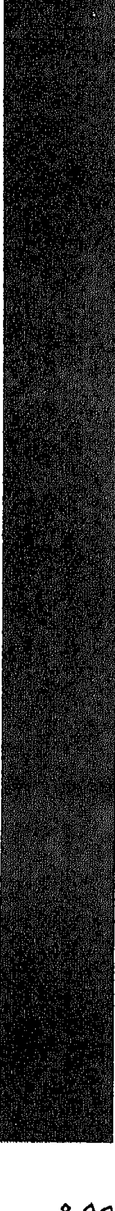
رابعا : لقد لعب صدام حسين ـ ضمن مخططه الدنىء ـ بما يمكن أن نطلق عليه (ورقة الشارع الإسلامى) لأن هذه ، وكما قيل من قبل بعض أزلامه (رابعة الأثافى) . حيث أن القاصى والدانى يدرك إدراكا تاما تلك المساحة الهائلة التى تفصل بين النظام البعثى العراقى العلمانى الذى أسسه النصرانى ميشيل عفلق وبين الإسلام والمسلمين . وهذا أمر واضح فيما يقرأه المرء أو يسمعه مما تنضح به أبواق صدام حسين ، وعلى لسانه شخصيا ، عن الإسلام والمسلمين . الأمر الذى يذكرنا بما قاله الأعرابى قديما : « إن لم تستح فافعل ما تشتهى » . .

ولن أطيل فى هذا البعد ، على الرغم من أهميته ولعب النظام العراقى عليه سواء من الناحية الدينية أو من ناحية الإثارة والتحريض بمزاعم كاذبة ومضللة حول سلامة والمساس بقدسية وأمن مكة المكرمة والمدينة المنورة . الا أننى ، وكما أشرت ، لا أنكر أنه يسهل استغلال السذج وخداعهم بمثل هذه الأباطيل ، ولكن من حسن الحظ أن هؤلاء قلة قليلة إلى جانب الشريحة العريضة من المثقفين المسلمين الذين يدركون بسهولة بلاهة هذه الادعاءات .

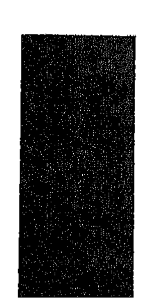
وخلاصة القول ، أنه على الرغم من ادراكى بأن بعض القراء قد يرون أيضا أن مقالى هذا قد يكون مبتورا كسابقه ، إلا أننى أود أن أؤكد بأن الهدف الأساسى لصدام حسين ليس احتلال الكويت فحسب ، بل وأيضا ظهوره على المسرح العالمى كقوة عظمى ، ليس فقط فى المنطقة العربية ، بل وأيضا فى المنطقة الإسلامية وحتى الآسيوية . ومن يدرينا ، فلعل طموحه يكون مهيأ للامتداد إلى قبرص واليونان على الناحية الأخرى من البحر المتوسط .

إن فعلة الرئيس العراقى وتوقيتها سولت له أمرا ، حيث اعتقد أنه سيخرج منه منتصرا وكقوة عظمى على مسرح الأحداث العالمية . قوة عظمى يجب أن يحسب لها حساب حين التعامل معها ابتداء من أمريكا وحتى هايتى . إلا أننى على يقين بأن احتلال العراق للكويت شكل مرحلة العد التنازلى للرئيس العراقى ، وياليته كان ممن يقرءون التاريخ ويستوعبون دروسه □





الخيار الأخير



تعددت الآراء وتنوعت الاجتهادات من جانب أولئك الذين وجدوا لديهم الحماس الكافى ،والدافع الطوعى أو الإلزامى لبذل محاولاتهم فى سبيل تقديم رؤ ية واضحة أو تفسير مقنع وتعليل منطقى لما قام به العراق من عدوان آثم على دولة الكويت . ولكن أحدا ، على ما يبدو ، لم يتمكن من تحقيق هذه الغاية بشكل قاطع ، بل ولم يستطع العراق نفسه ، وهو الفاعل الأصلى للجريمة ، تقديم مثل هذا التفسير برغم مضى خمسة أشهر منذ بدء عدوانه حتى الآن .

ومع ذلك فإن هناك عددا من الحقائق التى لا مجال للاختلاف حولها بشأن هذا الموضوع . منها على سبيل المثال ، أن الآثار السلبية المدمرة التى أفرزها هذا الحادث تماثل تماما ، إن لم تكن تفوق ، تلك التى تخلفها الزلازل . من حيث أنها غيَّرت بصورة مأساوية شديدة الإيلام للنفس ، العديد من المعانى النبيلة فى محيط الأخوة والثقة والتضامن والأمن العربى والإقليمى ، كما قلبت الكثير من المفاهيم والثوابت الراسخة التى طالما أخذناها على أنها من المسلمات البديهية .

لهذا لم يكن مستغربا أن تحتل هذه القضية الحيز الأكبر من مشاغل الدول الخليجية والعربية وتستحوذ على كامل اهتمام المواطن الخليجى والمواطن العربى الذى يعيش أو ينتمى إلى هذه المنطقة من العالم طوال الأشهر الخمسة الماضية ، وذلك من خلال العديد من التساؤلات الحائرة ، مثل : لماذا فعلها صدام حسين ، وكيف سولت له نفسه أن ينكل بشعب عربى مسلم شقيق وصديق ومسالم بمثل هذه القسوة المفرطة والأسلوب الوحشى المتجرد من كل معانى الرجولة والإنسانية والشرف المفترض فى أى إنسان حتى ولو كان بدائيا جاهلا وهمجيا متخلفا لا يعرف من أمور الدين والإيمان بالله شيئاً ولم يسمع قط عن ماهية الأخلاق والحضارة والمدنية .

إن السؤال الأكثر إلحاحا الآن ، وبعد أن اتخذ مجلس الأمن الدولى قراره رقم ٦٧٨ الذى يسوغ استخدام القوة لطرد العراق من الكويت إذا دعت الضرورة ، وبعد أن انقضت أكثر من ثلثى المهلة الممنوحة للعراق للانسحاب سلما من الكويت ، هو : هل يثوب صدام حسين إلى رشده قبل فوات الأوان وينسحب فى الوقت المناسب حقنا لدماء المسلمين وإنقاذا لأرواح الأبرياء من شعبه بشكل خاص ؟ ، بل وهل لصدام أصلا رشد يثوب اليه ؟ ، ثم ما هو شكل مستقبل العلاقات العربية العربية والعربية الدولية بعد انقشاع هذه الغمة ، بل وما هو شكل المستقبل فى حد ذاته ؟ . . .

إننى لا أكتب اليوم لكى أكرر ما سبق وأن ذكرته فى أكثر من حديث جرى حول أزمة الخليج ، أو ما ذكره العديد من أصحاب الرأى وقادة الفكر وفرسان القلم بهذا الخصوص . ولكننى أحاول فقط عرض رؤيتى الشخصية وتصورى لما يمكن أن يكون إسهاما أو مشاركة عملية فى تقديم الإجابة عن التساؤلات المشار إليها سابقا ، والتى تدور حول الرغبة فى التعرف على النهاية المتوقعة لهذه الأزمة . وسوف أعتمد فى ذلك على أسلوب الاستقراء الموضوعى للمعطيات الماثلة أمام أعيننا ، وعبر طرح بعض الافتراضات الجدلية المنطقية وتحليلها على النحو التالى :-

أولا : انسحاب العراق طوعا قبل ١٥ يناير القادم :-

كان يمكن أن يتحقق هذا الافتراض فعلا من خلال تطبيق كامل وصارم للعقوبات الاقتصادية التى أقرها مجلس الأمن ضد العراق . حيث أن

التطبيق العملى الفعال لهذه العقوبات كان حريا بأن يؤدى إلى تآكل قدرات العراق العسكرية والاقتصادية والصناعية والغذائية . . . إلخ ، الأمر الذى يحرم الرئيس العراقى من القدرة على الاستمرار فى الصلف والعناد والمكابرة ويجبره على الانسحاب .

غير أن السوابق التاريخية لتطبيق مثل هذه العقوبات ليست مشجعة وقلّما حققت أغراضها كاملة . خاصة إذا علمنا أنه (فى اطار أزمة الخليج الحالية) توجد بعض نقاط الضعف المتمثلة فى دول لا تريد الالتزام بتطبيق الحظر بشكل كامل وأمين ، وهى دول لها مصالح ذاتية بحتة فى مخالفتها للحظر الدولى . وعلاوة على أن خرق الحصار الاقتصادى من جانب بعض الدول يتسبب قطعا فى إضعاف فاعلية الحصار وإحباط الهدف الذى ينشده المجتمع الدولى من وراء تطبيق العقوبات ، وهو دفع العراق إلى الانسحاب سلما بغير عنف وبغير دماء . فإن هذا السلوك فى تقديرى مقصود من جانب بعض الدول التى تمارسه لكى تغرى الرئيس العراقى بالتمادى فى صلفه وعناده وإعطائه الإحساس الكاذب بقدرته على تحدى العالم كله والاستمرار فى مماطلاته وتسويفه . مما يدفع القوى الدولية للقضاء عليه . خاصة وأن صدام حسين نفسه لا يرى لانسحابه سوى واحدة من نتيجتين :-

١ ـ فإما أن تتم الإطاحة به من الداخل بسبب استسلامه المخزى لإيران ثم فشله فى الاحتفاظ بالمحافظة التاسعة عشرة ، بعد أن كان قد أكد لشعبه وجيشه مرارا وتكرارا أن تضحياتهم هذه المرة سوف لن تذهب هباء كما ذهبت فى المرة السابقة (حربه مع إيران) .

٢ ـ وأما أن يتمكن ، بطريقة أو بأخرى ، من البقاء فى الحكم (ولو على سبيل المكافأة عن إفراجه عن الرعايا الغربيين إكراما وتكريما لأعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية . . . إلخ ، وأيضا لانسحابه من الكويت) . وهو يأمل فى هذه الحالة أن تجد الدول المناهضة لأطماعه والمصممة على طرده ، نفسها أمام وضع يحتم عليها تفكيك حشودها والعودة إلى بلادها . الأمر الذى يؤمن له الفرصة المناسبة للإفلات من العقاب ، ويتيح له أيضا إمكانية معاودة تحقيق أطماعه بعد إعداد أكثر دقة وإتقانا وفى ظروف أكثر ملاءمة . .

وهنا لابد من الاشارة إلى طبيعة صدام حسين الانتهازية المعروفة ، والتى تدعونا للاعتقاد بأن تصرفه فى حالة تمكنه من الخروج من هذه الأزمة

سلبيا معاقى ، محتفظا بموقعه وبكامل قواه العسكرية ، سوف يعتمد ، وإلى حد كبير ، على شكل ودرجة صلابة الموقف الدولى الذى يواجهه .

ثانيا : خيار طرد العراق بالقوة من الكويت .

إن هذا الافتراض يعنى بالطبع اللجوء إلى القوة عن طريق الحل العسكرى إذا لم يرضخ صدام حسين لقرارات المجتمع الدولى ولم يجد فى نفسه الشجاعة الكافية لاتخاذ قرار الانسحاب طوعا من الكويت قبل ١٥ يناير القادم .

ومع أننى أكاد أجزم بأن الشغل الشاغل لصدام حسين حاليا هو البحث عن أفضل وسيلة آمنة يمكنه من خلالها الانسحاب بدون التعرض للعقاب سواء من الداخل أو من الخارج . إلا أننى لا أستطيع استبعاد خيار الحرب أيضا (وهذا رأى شخص بحث مستمد من الواقع الحالى) . ليس فقط لأننى أشك فى أن يتمكن صدام حسين من العثور على مثل هذا الطريق الآمن الذى يبحث عنه ، بل وأيضا لأنه عاجز ، فيما لو وجده ، عن المضى فيه والاستفادة مما أتيح ويتاح له من فرص السلام . وذلك لأسباب تتعلق بطبيعة شخصية صدام حسين نفسه والتركيبة النفسية لهذه الشخصية .

لذلك فسوف يظل صدام حسين ، على أغلب الظن ، واقفا فى مكانه غير قادر على الحركة للأمام أو الخلف أو اتخاذ أى خطوة إيجابية فى انتظار وقوع معجزة تنقذه من هذا الموقف دون أن يبدو أنه تراجع أو رضخ أو تنازل ، مثل حدوث انشقاق مثلا فى صفوف القوى المواجهة له أو فيما بين هذه القوى ودول الخليج .

ويعتقد الكثير من المحللين العسكريين أن أى حرب لإجبار صدام حسين على الانسحاب من الكويت سوف تكون باهظة التكاليف ، كما أن هزيمة العراق فى هذه الحالة مؤكدة وساحقة ، الأمر الذى يجعلنا نواجه واحدا من احتمالين : فإما أن يختفى صدام تماما ومن ثم يقفل الملف العراقى حيث سنكون وقتئذ أمام عراق آخر مختلف كل الاختلاف . وإما أن يتمكن صدام من الإفلات بحياته . ومع أن هذا الاحتمال ضئيل جدا ، إلا أنه لو حدث فسوف يحاول صدام فى هذه الحالة تقديم نفسه للعالمين العربى والإسلامى كبطل قومى استطاع أن يتحدى الولايات المتحدة وأن يقف فى وجه القوى

العظمى مجتمعة . وسوف يكون فى هذا إشارة واضحة لكل دول المنطقة بما لا يحتاج لأى تفسير . . .

ثالثا : افتراض التخلص من صدام حسين بالتصفية .

بعد أن وقع العدوان العراقى على الكويت وافتضح أمر الكثير من الممارسات الإجرامية البشعة للنظام القمعى الإرهابى الذى أقامه الرئيس العراقى صدام حسين ضد شعبه ، مستعينا بشبكة من المنظمات الحزبية السرية التى كانت وما زالت تعد على المواطن العراقى أنفاسه ولا تتورع عن قتله أو تعذيبه أو قتل أبنائه أمام عينيه وأفراد أسرته لمجرد الشك فى ولائه للنظام .

ولقد تبين للجميع كذلك أن صدام حسين لم يكن مؤهلا بأى حال من الأحوال لحكم البلاد ولا يمتلك من مقومات الزعامة أو القيادة أو الرئاسة إلا ما يرتديه من ملابسها . غير أنه وصل إلى منصبه هذا عن طريق ميزة أخرى لا يشاركه فيها الكثيرون ، وهى براعته الفائقة فى تدبير وحبك المؤامرات وقدرته غير العادية على التمويه والخداع وإخفاء حقيقة مشاعره قبل الانقضاض على فريسته التى يضمر الغدر بها ، إلى جانب موت ضميره ومشاعره الإنسانية وعشقه الطاغى لسفك الدماء البشرية أو على الأقل الاستمتاع برؤيتها . وكما تقول إحدى الشخصيات العراقية البارزة والتى لا يرقى الشك إلى شهادتها ، إن صدام حسين لا يستطيع النوم إلا إذا شهد بعض عمليات الإعدام أو التعذيب ، أو شاهد هذه الوقائع مسجلة على شريط الفيديو .

ومن المعلومات الأخرى المتواترة والتى أصبحت متداولة بعد العدوان ، أن عدد الذين تم إعدامهم من أفراد الشعب العراقى سواء بيد صدام حسين نفسه أو بأوامر مباشرة منه ، وهو فى طريقه إلى الحكم أو تأمينا لنظامه ، بلغ حتى الآن ٥٠,٠٠٠ نسمة ، كما بلغ عدد المهاجرين الفارين من بطشه وطغيانه ما يربو على المليون نسمة ، وعدد القتلى والجرحى والمعاقين من ضحايا حربه العبثية ضد إيران أكثر من مليون شخص أيضا . . .

وهنا يتبين أن لكل أسرة عراقية واحدا على الأقل من هؤلاء الضحايا ، لو أضفنا إلى ذلك حجم الجحيم الذى ينتظر أن تسببه الحرب القادمة لتحرير

الكويت وخسائرها البشرية المخيفة المتوقعة والتى يدركها الكثير من العراقيين .
فسوف لا يدهشنا على الإطلاق أن تأتينا الأخبار فى أى وقت خلال الأيام القليلة القادمة بنبأ انقضاض الشعب العراقى على صدام حسين والتصرف معه بمثل ما تصرف الشعب الرومانى مع شاوشيسكو .

ومع أنه لا يمكن التنبؤ بمن سيحل محل صدام حسين فى حالة تنفيذ مثل هذا السيناريو ، إلا أن هذا سوف يعتمد على هوية من يقوم بهذا العمل . غير أنه يمكن القول بأن أيا كان من سيحل محل صدام حسين ، فسوف لا يكون من الصعب عليه الانسحاب من الكويت والعمل على إصلاح ما أفسده سلفه .

رابعا : افتراض تشبث صدام حسين بالكويت وعدم تراجعه عن احتلالها .

بالرغم من أن هذا الافتراض بعيد الاحتمال بدرجة كبيرة ، الا أنه من الناحية النظرية البحتة ممكن الحدوث . . فمع أن الغالبية العظمى من القوى الدولية ترغب فى التوصل إلى حل سلمى لهذه الأزمة يجنب العالم ويلات حرب لا يعلم إلا الله نتائجها ، إلا أنها أصبحت على قناعة بعدم جدوى العقوبات الاقتصادية إذا لم يستمر تطبيقها لمدة طويلة ، فى حين أن القضية لا تحتمل الانتظار .

ومن ناحية أخرى ، ومع مرور الوقت ، فسوف تقل تدريجيا تهديدات صدام حسين . ولكن يتعين أن ننتبه هنا وأن نضع فى الحسبان أنه إذا تناقص التهديد العراقى الموجه إلى المملكة العربية السعودية من ناحية ، فسوف تبرز من الناحية الأخرى بعض القوى الإقليمية التى تقوم بنفس المهمة ، سواء لحسابها الخاص أو بالاتفاق مع العراق بهدف تخفيف التركيز الدولى على الأخير .

وخلاصة القول ، أنه وقد ثبت بالدليل المادى القاطع أن صدام حسين لم يكن على الإطلاق ، مؤهلا لاعتلاء مسرح السياسة الدولى كزعيم أو رئيس يمتلك السلطة لاتخاذ القرارات المصيرية فى بلاده ، وأنه يجهل جهلا تاما أصول وقواعد اللعب على هذه الساحة الخطرة . حيث زج بنفسه ودفع بفرقته البائسة لأداء المشهد الأول من مأساة احتلال الكويت دون أن يعرف مسبقا تفاصيل أو حتى ملامح بقية الفصول الأخرى ، بل ودون أن يدرى حتى كيف

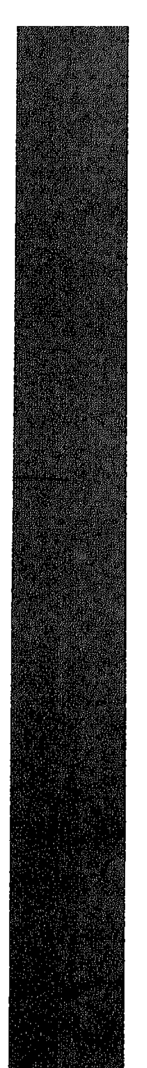
ينهى فصلها الأول . لذلك فإن علينا أن نتصور هذه النهاية بأنفسنا ، والتى لا أرى لها سوى خيارات محدودة جدا ، بناء على ما يفرضه الواقع الدولى الحالى ، وهى بصرف النظر عن ترتيب الأولوية على النحو التالى :ـ

١ ـ فإما أن يبدأ صدام حسين انسحابه (تحت أى ذريعة) قبل الخامس عشر من يناير على أن يطلب بعد ذلك (عبر توسط بعض الدول) إعطاءه مهلة لإتمام الانسحاب ، مع محاولة التلكؤ والمساومة من وقت لآخر للحصول على بعض المكاسب ، أو على الأقل إعفائه من العقوبات .

٢ ـ وأما أن يعجز صدام حسين عن اتخاذ هذا القرار ، ويتم إزاحته داخليا ، ومن ثم تأخذ القضية طريقها نحو الحل ، باعتبار أن العلة تكمن فى شخصية صدام نفسه .

٣ ـ أما الخيار الأخير ، فهو الحرب ما لم يكن منها مفر بالطبع . وعندئذ سوف تتوزع الخسارة على جميع الأطراف المشار: ءغير المشاركة على السواء ، وسوف يتقبلها الجميع باعتبار أن حماية العدالة الدولية وصيانة المبادىء الأخلاقية لها ثمن لابد من تحمله .

أما العراق فسوف تكون خسارته أكثر من فادحة وستمتد آثارها السلبية إلى أجيال قادمة . ليس فقط لأن الغضب الدولى سوف ينصب عليه وحده ودون أن يتحمل أحد عنه أى نصيب ، بل ولأنه أيضا سوف يدرك ، ولو متأخرا ، أنه كان الطرف الوحيد الذى خسر بغير قضية . تماما كما حدث له ، وبشكل مصغر ، فى حربه مع إيران □





٨

جنون القوة ..
وقوة الجنون



إن بناء الإنجازات الحضارية الكبرى ، أمر يحتاج إلى عمل جاد مخلص وجهود مكثفة ومتصلة يبذلها عشرات الآلاف من الرجال الأكفاء المؤهلين عبر سنوات طويلة ، وربما لأجيال متعاقبة . أما هدم مثل هذه الإنجازات (والعياذ بالله) ، فقد لا يتطلب أكثر من جهد معتوه واحد فاقد الرشد أو مجرم معدوم الضمير يملك عودا من الثقاب ، لكى ينجز المهمة فى ثوان معدودات . . .

هذه بالطبع ليست نظرية فلسفية ولا هى نظرة رومانسية تشاؤمية ، وإنما هى حقيقة موضوعية واقعية من حقائق الحياة المعروفة للجميع ، أحاول من خلالها أن أعبر عما يجيش به صدر كل منا تجاه ما يجرى حاليا على ساحة أحداث المأساة التى نعيشها فى الوقت الراهن والمعروفة بأزمة الخليج ، أو التراجيديا التى أوشك الستار أن ينسدل على فصلها الأول لتتوالى بعده فصول أخرى لا نعرف شيئًا عن شكلها مثلما لا نعرف شيئا عن مضمونها . .

فنحن نعرف أن العالم على اختلاف أجناسه وشتى عقائده يقف الآن صفا خلف رأى واحد عبر عنه من خلال قرارات مجلس الأمن الدولى المتعاقبة

التى تقضى بضرورة وضع نهاية حاسمة وسريعة للعدوان العراقى وإنهاء احتلاله للكويت وإزالة مظاهر تهديده للمملكة العربية السعودية عن طريق حشد قواته العسكرية على حدودها .

ونحن من جانبنا على ثقة تامة من عزمنا الأكيد وإصرارنا القاطع لتحقيق هذه الغاية ، سواء بالطرق السلمية أو عبر الحرب التى ندرك تماما حجم تكاليفها الباهظة ، ولكننا على استعداد المؤمنين لتحمل كل ما يتطلبه الدفاع عن الحق والذود عن الأراضى وحماية العرض والشرف والكرامة الوطنية مهما كان الثمن فادحا والخسائر جسيمة . فنحن نؤمن ونسلم بقوله تعالى فى محكم التنزيل « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وأنا هنا لا أتحدث عن تكاليف الحرب من حيث حجم خسائرها المادية فى الأرواح والأموال فقط ، وإنما أعنى بذلك أيضا الخسارة الكبرى المتمثلة فى ذلك الضباب الكثيف الذى أصبح يحيط بمستقبل العلاقات العربية بعد أن تلقت ضربة قاصمة بعدوان العراق على الكويت وما تمخض عن هذا العدوان من آثار مدمرة ماديا وأدبيا ومعنويا وأخلاقيا وحضاريا ، وأيضا من خلال أساليب الخداع والتضليل التى مارسها الرئيس العراقى شخصيا فى إطار هذه العلاقات وتحت ستارها .

وحتى لا يدعى البعض ، أو حتى يتصور عن حسن نية ، أننى أبالغ أو أتجنى عندما أصف أساليب الرئيس العراقى بالخداع والتضليل والنفاق ، فسوف أستعرض مع القارىء بعض نماذج من أقوال الرئيس العراقى التى سمعتها منه بنفسى علاوة على أنها منشورة فى واحدة من أكثر الصحف العراقية ولاء له والمسماة « قادسية صدام » ، فى عددها الصادر بتاريخ ٧/٩/ ١٩٨٨ ، وكان ذلك بمناسبة استقباله لأعضاء وفود الدورة الثالثة والعشرين لمجلس وزراء الإعلام العرب المنعقد وقتئذ فى بغداد .

يقول الرئيس صدام حسين عن إيران ، التى كانت قد أعلنت قبل ذلك التاريخ بقليل قبولها لقرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ القاضى بوقف القتال بينهما : « إن شاء الله سيوصل وقف إطلاق النار إلى سلام دائم وشامل يحفظ كرامة الإيرانيين وكرامة العرب ، **لأن العرب ليسوا من النوع الذى يهين كرامة ،**

لأنهم أناس يحترمون كرامتهم ، ولذلك لا يهينون كرامة أى شعب وأية أمة » ! . .

ثم يقول الرئيس العراقى : « كلنا نحن العرب أنظمة شتى ، **ولكن المطلوب منا أن لا نبحث عن إلغاء أبنية قائمة وأن لا نفتت نسيجا قائما** ، وإنما نبحث عن خيمة كبيرة مشتركة تغطى كل الخيم الأخرى فتصبح فوقها **بدون أن تنتقص من أية خيمة من خيمنا الوطنية سواء فى العراق أو فى الكويت أو فى قطر أو فى دولة الإمارات أو فى أكبر دولة فينا وأصغر دولة فينا » ! . .**

وفى موضع آخر من حديثه يقول الرئيس العراقى : « **فيما سبق ، تحت ضغط عوامل الحماسة والرغبة الصادقة** فى أن نصبح حالة أفضل كعرب ، **ربما فكر من فكر منا بأن إلغاء بعض الخيم هو الطريق للوصول إلى الخيمة الأكبر ، بينما التجربة الحقيقية والرؤية الواقعية والمبدئية أيضا تقتضى أن نفتش عن خيمة مزركشة جميلة تكون سياجا آخر فوق خيمنا دون أن تؤثر على خصوصياتها . فتقى خيمنا من كل الأنواء الجوية ، فما هى هذه الخيمة ؟ . . الدرجة الأساس التى تنطلق منها هى الروح الأخوية التى تبنى بيننا كعرب ، أى أن نتسامح مع بعضنا البعض عندما نخطىء . وعندما يخطىء أى واحد منا ونفتش معا عن فهم العوامل التى تجعل أى واحد منا يضعف أمام حالة معينة وأن نعاونه لكى يصبح أقوى كما نرشد القوى منا لأن تكون قوته مبصرة وليست غاشمة ، وأهم ما فى القوة المبصرة هو احترام خصوصيات أشقائه كلهم » ! .**

كذلك يقول الرئيس العرايق : « . . . فلا يكفى إخوانى أن تكون السعودية أفضل من عدد من الأقطار العربية بقياسات المستوى العلمى أو بالقياسات الأخرى ، لأن هذا إن حصل فسيركز التآمر على السعودية (! ! !) وستصبح السعودية غير قادرة على تحمل التآمر ، لأنه بقياسات أعداء الأمة أى عملية نهوض وإشعاع واقتدار ينمو فى أى قطر لابد أن ينعكس إيجابيا على الأقطار الأخرى بموجب منهج التعاون الأخوى وبموجب قياسات كوننا أمة واحدة وبموجب قياسات شتى » . . .

ثم يستطرد : « . . **فالأمة العربية فى كل منهجها وقبل أن نكون نحن وقبل أن تخلق دولنا الحالية ، كان منهجها دائما منهج سلام ومنهج محبة ومنهج إشعاع لا منهج تسلط ، ومنهج تفاعل لا منهج عدوان بكل تاريخ**

الأمة العربية ، فليس معقولا أن ينسلخ هذا الجيل عن تاريخه ويصبح عدوانيا لمجرد أن يصبح لديه اقتدار مالى أو عسكرى أو علمى أو غير ذلك » ! ! !

ويقول الرئيس العراقى أيضا فى نفس حديثه الملحمى : « إذن ، فمن النقاط الأساسية التى توصلنا إليها بسبب خبرتنا الميدانية التى هى خبرة حرب ثمانى سنوات ، هى ، يجب أن لا يوجد عربى يخاف من عربى آخر فى الوطن العربى ، لأنه عندما يخاف من العربى سوف يذهب ليجلب الأجنبى لمساعدته » . . . ثم يقول أيضا : « ومن أهم المسائل التى يجب أن ننتبه لها هو التدخل فى الشئون الداخلية ، وأقولها الآن بقوة لأننى لو قلتها بنفس القوة قبل أربع سنوات لقيل إن هذه تنطلق من ظروف العراق كونه يحارب ولا يريد من أحد أن يتدخل فى شئونه الداخلية » . . .

وفى آخر النماذج التى يمكن أن يتسع المجال لاستعراضها هنا من حديث الرئيس العراقى يقول : « كل هذه الأفكار لدينا لا تأتى بصيغة بيانات . . وان كانت لدينا وبحمد الله . إننا تحدثنا عن هذه الأفكار فى شباط عام ١٩٨٠ بصيغة مكتوبة ومعلنة على العالم . . أى قبل قيام الحرب بسبعة أشهر ، ومع ذلك فإن الكثير من الأفكار ومنها عدم التدخل فى الشئون الداخلية كنا نحكيها مع بعض أشقائنا ولكننا لم نكن نتابعها معهم بالتفاعل فى الآراء بالأخذ والعطاء لنعرف هل يقبلونها منا ؟ ، وماذا يضعون علينا من شروط حتى يتأكدوا أن كلامنا صحيح وليس للاستهلاك بسبب ظروف الحرب كما قلت ! ! . ومن بينها أيضا أن العربى لا يستخدم سلاحه ضد عربى ! . يا أخى إذا أردت أن تجرب سلاحك فأعداء الأمة العربية كثيرون ويعجزون الشخص الذى يريد أن يستخدم سلاحه ! . وضد من تستعمل السلاح ؟ ، ضد العربى ؟ ! . دع العربى يحس بأن سلاح أخيه أينما كان هو سلاح له معلق فى المشجب ، إما أن يستخدمه أخوه عندما يكون فى ضائقة أو هو يستخدم السلاح عندما يكون فى ضائقة . . لا أن يقوم كل واحد منا يحسب للعلاقة بيننا وبين أجنبى ، وكم طائرة عند أخينا وكم دبابة وكم مدفع . ونحن كيف نكون ؟ وكم يجب أن يكون عدد طائراتنا ودباباتنا ومدافعنا حتى نكون فى حالة المنازلة فى وضع القادر ؟ » ! . .

وبغض النظر عن ركاكة الأسلوب وتدنى مستوى التعبير وغموض الدوافع المريبة لاختيار مضمون الحديث فى حد ذاته ، فان السؤال الذى

يطرح نفسه هنا هو : « هل يجد القارىء بعد ذلك أنه ما زال بحاجة إلى تعليق أو تفسير أو إيضاح يؤكد له أنني لم استخدم صيغ المبالغة أو ألجأ للتجنى فى وصفى للرئيس العراقى ، سواء من خلال هذا المقال أو فى المقالات السابقة ، وأننى لا أنطلق من رغبة فى الرد على السباب الهابط والاتهامات الباطلة التى أمطرتنا بها وسائل الإعلام العراقية وتلك المتعاونة معها سواء بدافع الحقد أو بالعمالة ؟ » .

إننى شخصيا أعتقد أن قليلا من إمعان الفكر فيما ورد من نماذج (محدودة) لبعض أقوال الرئيس صدام حسين ، ومقارنة هذه الأقوال بما فعله من خلال أزمة الخليج وما تلاها ، فيه كل الكفاية والدليل القاطع على أن الرجل يعانى فعلا من حالة توصف فى الطب النفسى بالشخصية غير السوية التى يسيطر عليها الخوف الدائم والحقد الدفين الذى يولد لدى صاحبه الرغبة الجامحة فى السعى لاكتساب القوة وجنون العظمة وحب الانتقام والمبالغة فى القسوة وتقدير الأمور على غير حقيقتها من خلال الأوهام التى تدور فى رأسه وحده . . إلخ . أما فى عقيدتنا المطهرة فقد وصفها الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم بقوله : « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان . . وفى قول آخر ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . وهذه الصفات جميعها متوفرة بغير استثناء فى شخصية الرئيس صدام حسين . . فمن أين إذن يمكن أن تأتى المبالغة أو التجنى ؟ .

إن المرء لتنتابه الدهشة ويتملكه العجب عندما يتأمل تصرفات هذا الرجل الذى لا يعرف الخجل والحياء سبيلا إلى وجهه الثلجى الجامد التعبير وضميره المتبلد الحس والمتجرد من العاطفة والرحمة . ففى الوقت الذى يقول : « كان منهج الأمة العربية قبل أن نكون نحن وقبل أن تخلق دولنا الحالية ، هو منهج سلام ومحبة وإشعاع وتفاعل لا منهج تسلط وعدوان بكل تاريخ الأمة . . وليس معقولا أن ينسلخ هذا الجيل عن تاريخه ويصبح عدوانيا لمجرد أن يصبح لديه اقتدار مالى أو عسكرى . . إلخ » ، نجده ينقض على دولة جارة صغيرة ضعيفة مسالمة عربية مسلمة ، بنذالة يعجز أمامها التصور لكى يجردها من تاريخها ومن ثرواتها ، بل وحتى من اسمها . .

وفى الوقت الذى يقول : « يجب أن لا يوجد عربى يخاف من عربى آخر ، لأنه لو خاف من عربى مثله يذهب ليجلب الأجنبى . . لمساعدته » ،

نراه يقوم بنفسه بتجسيد هذا التهديد والإرهاب ، ليس فقط من خلال الأقوال ، بل وأيضا بالأفعال والحشود العسكرية . ثم يتعجب من جلب الأجنبى ويتباكى على العروبة ويتهم غيره بالخيانة . . .

إن هذا التناقض الواضح الفاضح أصبح أمرا معروفا ومفروغا منه ونتوقعه من الرئيس صدام حسين فى كل وقت ومع كل قول يقوله أو فعل يفعله . ولكن الأمر الأشد إيلاما حقا والذى لا ينبغى أن يسمح به على الإطلاق هو أن يمتد هذا التهريج إلى الدين الإسلامى واستخدامه بالباطل للتلاعب بعواطف المسلمين وتحريكهم لخدمة أهداف شريرة لشخص أقل ما يمكن أن يوصف به أنه منافق ومريض نفسى .

فنحن نعرف أن الرئيس العراقى هو فى نفس الوقت رئيس الحزب الحاكم فى البلاد . ونعرف أيضا أن هذا الحزب يقوم على مبادىء علمانية استشراقية لا تعترف بالأديان وضعها زعيمه النصرانى ميشيل عفلق الذى صدرت تعليمات الحزب لأتباعه بوجوب الصلاة على روح زعيمهم الراحل ميشيل عفلق واستلهام هدايته من خلال صلاة تقول كلماتها :

« أيها الدليل الأمين . . يا من تضىء ظلمات الشك . . يا من هديتنى إلى الصراط المستقيم . . » كل هذا لميشيل عفلق وهو فى قبره . . .

ونحن نعرف ، بل ويعرف العالم كله ، من خلال الكتب المنشورة باسمه أن الرئيس صدام حسين ، عبر فى مئات المناسبات ومن خلال دعوته الحماسية لمبادىء الحزب الذى يترأسه عن بغضه الشديد واحتقاره الإسلام والمسلمين وكان يصف رجال الدين فى بلده بالمتخلفين والرجعيين والذين يريدون أن ينتزعوا الحكم من بين يدى الحزب ليعودوا بالبلاد إلى عهود الجهل والظلام ، إلى أربعة عشر قرنا إلى الوراء . . إن نفس هذا الحاكم المنافق هو الذى يأتى اليوم ليتباكى على الإسلام والمسلمين ويعلن خوفه وهلعه على مقدساتهم التى سيدنسها تواجد القوات الأجنبية التى جاءت للمساعدة على مواجهة غدره وعدوانه وتهديده . . ولكن الله غالب على أمره وسوف ينصر المؤمنين □

المأساة
فى
صور



لم يسلم الطير على طول شواطىء الخليج من تلوث صدام .. لقد أجهش الأطفال بالبكاء عندما شاهدوا صورة الطائر « الوليد » فى « شيخوخته » وهو يصارع الموت ..







في يوم الطفولة العالمي .. كان قد وضع خطة المستقبل ليقدم هذه الصورة هدية منه إلى أطفال العالم





الأطفال من مختلف جنسيات العالم . . لم يسلموا من بطشه



ما ذنب هذا الطفل البرىء الذى أضاف « صدام » أسمه إلى قائمة اليتامى ؟ !



بعض أدوات التعذيب التى كانت تستخدمها القوات العراقية ضد شعب الكويت



هكذا . . كان وضع الأخوة الكويتيين الذين كانوا يعيشون فى العراق . . هائمون على وجوههم بعد الطرد من بيوتهم ، كمرحلة أولى من مراحل العذاب والتعذيب .



التدمير من أجل التدمير . . تدمير أى شىء فيه حركة أو حياة .

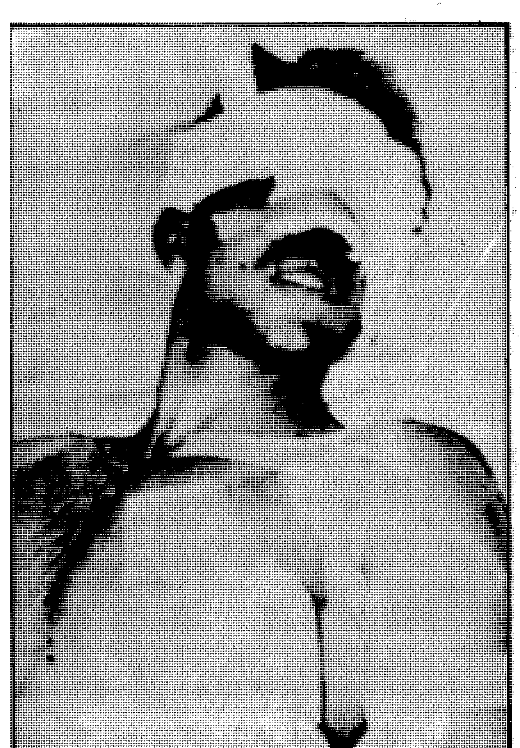

Oh no, he's back again.
Let's pray that this time is the last time.



واحد من مئات آبار البترول التى فجرتها القوات العراقية ، حيث تنطلق ألسنة اللهب وأمواج الدخان الأسود الذى حول الكويت إلى ظلام دائم ، وامتد التلوث ليشمل العالم .



مبنى الخطوط الجوية الكويتية . . من بين أهداف تدمير القوات العراقية . .



صور الجرحى والقتلى والموتى . .
أصبحت صورا عادية تقليدية فى عالم « صدام » . . عالم التعطش إلى الدم .



فى سكون وصمت القبور بالكويت . . تصرخ أرواح الضحايا ، حيث يقف هذا المواطن الكويتى ممسكا صور زملائه الذين قتلتهم قوات « صدام » حرقا . . لقد أحرقوا أيضا أفراد أسرته وأقاربه أمام عينيه ثم تركوه حيا يعانى عذاب المأساة . .

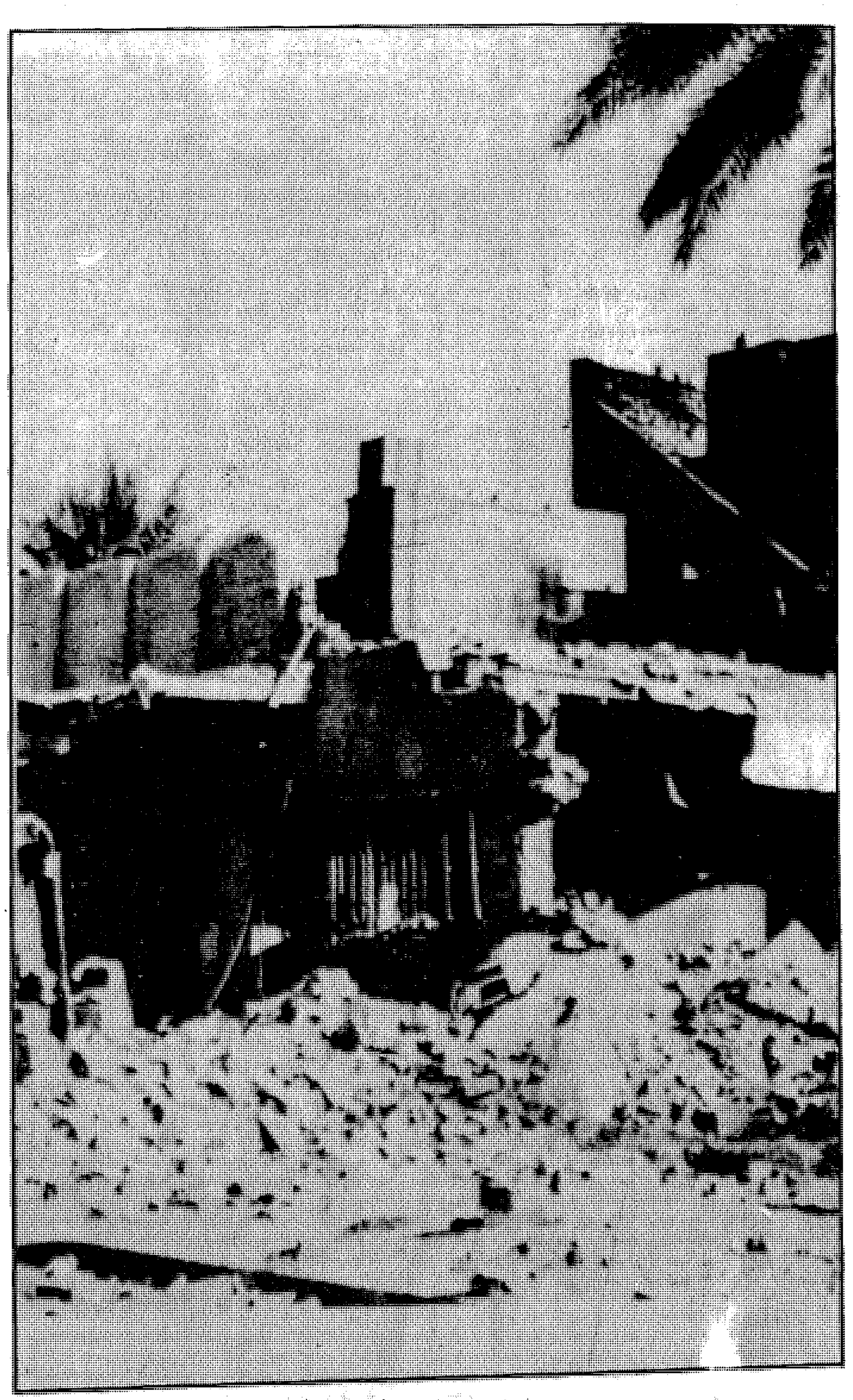


إحدى الأمهات الكويتيات مع أطفالها على حدود بلادها بعد أن نجحت فى الهروب من العراق .

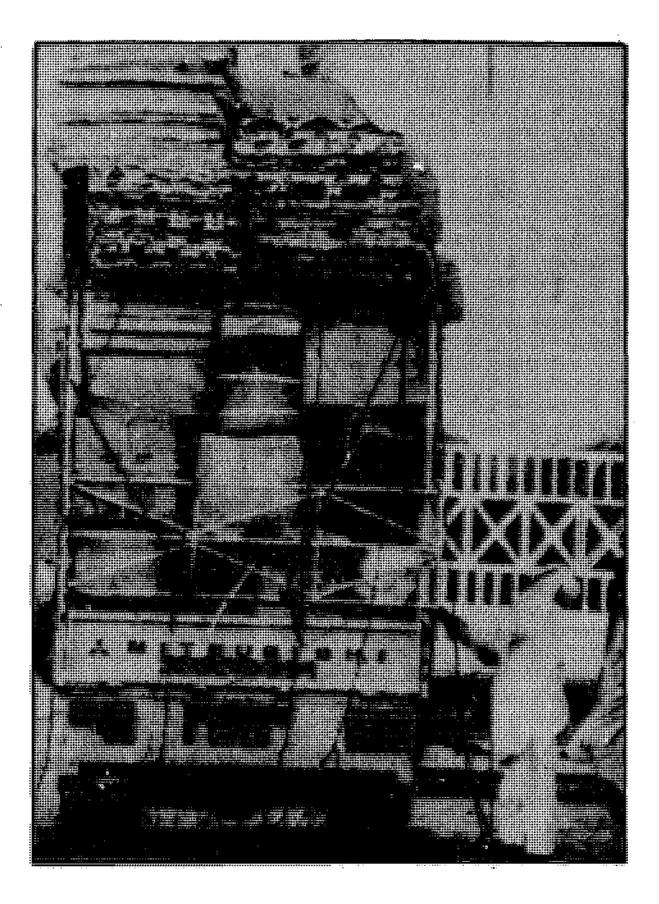


البلايين التى أنفقت فى حرب الخليج ، كان من الممكن استخدامها فى البناء والتعمير لو أن صدام كان قد استمع إلى صوت الضمير العالمى . .





جنون العظمة .. ثمرته الخراب والدمار .



●● سعداء الحظ . . الذين وجدوا سيارة سليمة للفرار بأمتعتهم . .



●● وآخرون لم يجدوا وسيله سوى السير آلاف الأميـال . . المهم . . أنهم نجوا بأرواحهم .

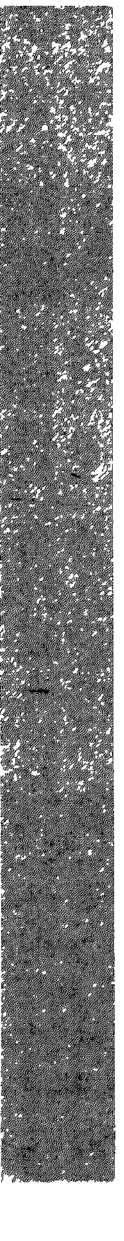


هكذا فعل « صدام » بأهله وشعبه . . لقد فلت منه الزمام وتحولت
ضرباته العشوائية الى شعبه تأديبا له عندما أبدى مجرد تذمره .

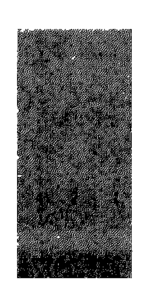




٩



ويفترون على الله الكذب



كما كان متوقعا تماما ، كما هى عادة القيادات التى لا تتمتع بالشجاعة ولا تتصف بالشرف أو النبل من أولئك الذين لا يتورعون عن ارتكاب أدنأ الأعمال ما دامت تمكنهم من تحقيق أهدافهم أو ستر فشلهم . فعندما بدأت أبعاد صورة المأساة التى صنعها صدام حسين باجتياحه للكويت تتضح وتتجسد من خلالها أعماق الهاوية التى دفع بشعبه إليها غير عابىء بالثمن الفادح الذى يتعين على هذا الشعب المسكين أن يدفعه لمجرد تحقيق طموحات شخصية مجنونة لقائده الذى قامر بحاضره ومستقبله ، بل وربما أيضاً بتاريخه الذى تمرغ فى التراب . فقد لجأ الرئيس العراقى إلى حيلته المفضلة التى يجيدها تماما وهى التضليل ، لكى يحصل على المساندة اللازمة لستر جريمته وتمكينه من الإفلات بالغنيمة أو ثمرتها الحرام التى أسماها « جائزته » . .

ولما كان المستهدف بعملية التضليل هذه هو الرأى العام العربى والاسلامى ، فقد كان طبيعيا أن يتخذ الطريق إليها مسارين متوازيين ، أولهما البعد العربى المتمثل فى دغدغة المشاعر الوطنية وقد تركز بصورة خاصة على القضية الفسلطينية . مدعيا بأنه قصد باختطاف الكويت أن تكون

رهينة لاجبار المجتمع الدولى على البحث عن حل لهذه القضية ، إلى جانب الزعم مرة بأنه أراد أن يجعل من الكويت والعراق نواة للوحدة العربية ، ومرة أخرى بأنه يهدف إلى إعادة توزيع عوائد النفط والثروات العربية بصورة أكثر عدلا بين الأغنياء والفقراء !! ؟

أما المسار الثانى لعملية التضليل فكان البعد الإسلامى ، مدعيا من خلال فتوى أصدرها « فضيلته » شخصيا ، تقضى بعدم جواز استعانة المسلم بغير المسلم لحمايته من عدوان مسلم . . ، لأن وجود غير المسلم على أرض المسلم يعد إهانة لجميع المسلمين وتدنيسا لمقدساتهم . . ، خصوصا وأن هذه القوات لم تأت (حسب رأى فضيلته) لكى ترد عدوانا أو تدفع ظلما أو تنصر حقا ، وإنما جاءت لتنتقم من أحفاد صلاح الدين ولكى تعاقب المسلمين (فى شخص العراق) لجرأتهم على امتلاك أسباب القوة التى تهدد إسرائيل . . ولم يكن الرئيس العراقى قد فاته بالطبع أن يمهد لمثل هذه الفتوى بالإعلان والترويج على أوسع نطاق لما تم اكتشافه مؤخراً من ثبوت نسبه وانتمائه للأصول الهاشمية الكريمة .

ويتمادى « فضيلة » الرئيس العراقى مستغرقاً فى تأملاته وإصدار الأحكام بشأنها قولا بأن هذه الحرب معركة بين الإيمان والكفر ، بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، بين التسلط والعدوان من ناحية وبين العدل والإنصاف من ناحية أخرى . . ثم يقول : ولقد أسميناها « أم المعارك » لأن الحق فيها واضح والباطل واضح ، وبما أننا مؤمنون بالله ، والله حق يحب الحق وينصره ، إذن فليس هناك معركة أكبر من معركة يقودها الله سبحانه وتعالى (يقصد معركة العراق) ضد جيش الكفر الذى يقوده الشيطان من جانب آخر .

ولست أدرى إذا كنت بحاجة هنا إلى التصدى لمثل هذه الأكاذيب الصغيرة والتافهة أم أن الرد عليها ودحضها يعد من قبيل البديهيات التى لا تغيب عن فطنة كل ذى عقل أو ضمير . ومع ذلك فلا بأس من أن نتعرض لها أو لبعضها بصورة سريعة وموجزة حتى لا يتطرق إلى ذهن البعض (سهواً أو عمداً) بأننا تركناها عجزاً وليس ترفعاً . وذلك على النحو التالى :

١ ـ الرئيس العراقى كاذب تماماً فى كل ما قاله بشأن الوحدة . إذ أن

الوحدة لا تتم ولم نسمع بأنها تمت من قبل عن طريق القسر والغزو والاجتياح فى ظلام الليالى . كما أن أحداً لم يفوض الرئيس العراقى لإتمام هذه الوحدة . وإذا كان هناك من فوضه فلماذا لم يبدأ بهم ولماذا لم يبدأوا هم بأنفسهم . ثم إن الرئيس العراقى لم يفسر لنا أسباب النهب والتخريب والإيغال فى دم الأبرياء ما دام الهدف شريفا وهو الوحدة بين الأشقاء . . . وأخيراً فكم كنا نتمنى أن نعرف منه أو من زمرته الباغية عن علاقة الوحدة بالاغتصاب ، **وكيف يمكن أن يكون احتلال الكويت طريقا لتحرير فلسطين مع العلم بأن الأردن هو الذى يمثل الطريق الأقرب والأنسب جغرافيا لتحرير فلسطين على حد زعمه !** أم ترى أن الكويت كانت الحليف القوى والعقبة الرئيسية فى الطريق إلى إسرائيل . . .

٢ - انطلاقا من أى قانون وضعى أو سماوى ، وبموجب أى حق دولى فوض الرئيس صدام حسين نفسه قيما على ثروات العرب والمسلمين لكى يقرر إعادة توزيعها ، وما هى السوابق الدولية أو القانونية أو التاريخية لهذا المبدأ العجيب ، حتى فى عهد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ؟ . . أو لم يكن الأولى بصدام حسين أن يوزع ثروة العراق بالعدل بينه وبين الشعب العراقى ؟ . **فنحن لن نتحدث عن مساعداته للدول الإسلامية والصديقة ، لسبب بسيط وهو أن مثل هذه المساعدات غير موجودة على الإطلاق ، وهو قد تعود على الأخذ فقط ، أما عطاؤه فهو الموت** . . أو لم يكن الأولى به ، أن يعطى المصريين الذين ذهبوا لمساعدته أيام محنته أجورهم بدلا من أن يأكلها سحتا ويعيد الكثير منهم فى نعوش ؟ . .

٣ - ومتى كان العراق خطرا يهدد إسرائيل ، مع أن المعروف أنه لم يشتبك معها فى معركة واحدة من المعارك الأربع التى خاضها العرب ضد إسرائيل ، بل وأنه لم يحرك ساكنا أو يلقى عليها حجرا عندما دمرت له مفاعله النووى بغير مناسبة ودون أى استفزاز من جانبه . ثم ما الذى منع العراق من تحرير فلسطين بالذهاب إليها مباشرة وليس عن طريق الكويت أو الإمارات أو غيرها ما دام يمتلك كل هذا المخزون الهائل من السلاح الذى كشفت عنه حرب الخليج الحالية ؟ . .

٤ - يقول المستر دوجلاس هيرد وزير الخارجية البريطانى ، إن ادعاء الرئيس العراقى بأنه اجتاح الكويت لمصلحة الفلسطينيين هو محض هراء

واضح ، إذ أن صدام حسين لم يأت حتى على ذكر الفلسطينيين إلا بعد عشرة أيام من اجتياحه للكويت ، ولم يكن هذا الادعاء إلا مجرد فكرة هزلية خطرت على باله فيما بعد (وبعد أن سخر العالم من كل المبررات التافهة التى كان يقدم واحدا منها كل يوم) .

٥ ـ لم يوضح لنا صدام حسين من أين جاء بالحكم القائل بعدم جواز استعانة المسلم بغير المسلم إذا تعرض لعدوان أو ظلم من مسلم آخر . هل جاء به من التاريخ العربى أم من أحكام الشريعة الإسلامية ، أم تراه من ابتكاره وابتكار المنافقين المشايعين له ويلصق زوراً وبهتانا بالعروبة أو بالإسلام ؟ . .

٦ ـ هل هناك صفاقة أكثر من أن يعتدى صدام حسين على دولة عربية مسلمة ، ثم يأتى ليضحك بكل تبجح على بقية المسلمين بالقول أن وجود قوات غير مسلمة على أرض بلد مسلم (المملكة العربية السعودية) يعد إهانة للمسلمين وتدنيسا لمقدساتهم ؟ . .

إن الفجيعة ليست فى أن يقول صدام حسين هذا ، فهو رجل كما قلنا فى بداية هذا الحديث يمكن أن يفعل أى شىء . **ولكن الفجيعة هى أن يكون بيننا من هم على قدر من الغفلة بحيث يصدقون هذا الخداع الرخيص والاستهانة بعقولهم . .**

٧ ـ أرجو أن يسمح لى القارىء بأن أعود هنا مرة أخرى إلى حديث المستر/ هيرد حيث يقول ، « إن الضرر الأعظم الذى ألحقه صدام حسين من جراء ما فعله كان بالمسلمين بالذات . **فهو يتظاهر بأنه قائد مسلم ، ولكنه فى الواقع مسئول عن موت أكبر عدد من المسلمين فى أى زمان ومكان ، وهو الرجل الذى شن هجوما غادرا على مواطنيه الأكراد العزل بالغاز السام لإبادتهم بصورة وحشية لا يعرف التاريخ لها مثيلا ، علاوة على ما فعله بالمسلمين فى إيران وفى الكويت** . إن الحرب الدائرة الآن فى الخليج ليست حربا ضد العالم العربى أو الإسلامى وإنما هى حرب لرد عدوان بلد مسلم ضد بلد مسلم آخر . والقوات الدولية المشتركة التى تقوم بهذه المهمة هناك بناء على طلب الدول المهددة والمعرضة للخطر وليس لديها أية طموحات سوى تلك المهمة التى أقرتها الدول العربية والأمم المتحدة » .

٨ - ويقول الرئيس الليبى معمر القذافى (إن صدام حسين يريد أن يقحم العرب فى حرب لا قبل لهم بها وكان يخطط لها منذ عشر سنوات ولم يأخذ رأيهم فيها . **وهو قد بدد ثروات بلاده ومقدرات شعبه من أجل زعامة شخصية وليس كما يدعى من أجل فلسطين) .**

٩ - يقول العارفون بدخائل حزب البعث العراقى (بزعامة صدام حسين) ، إن من المبادىء الأساسية لهذا الحزب ، والتى يتفق فيها تماما مع النظرية الشيوعية « أن الله خرافة ، والدين أفيون الشعوب » . . . وحتى لو كان هناك من ينكر وجود هذا المبدأ ضمن مبادىء حزب البعث العراقى بزعامة صدام حسين ، فلعله يصدق ما يقوله صدام حسين نفسه تعبيرا عن أفكاره وآرائه تجاه الدين ، من واقع ما جاء فى كتاب منسوب إليه ومنشور باسمه ، حيث يقول الرئيس العراقى تحت عنوان « نظرة فى الدين والتراث » . . (ينبغى أن نقول منذ البداية إن حزب البعث العربى الاشتراكى العراقى هو حزب يضيف إلى جوهره القومى فكره العلمانى مثلما هى دولة البعث فى العراق ، فى نظريتها التى تهتدى بها وفى ممارساتها كدولة قومية علمانية) .

ثم يقول فى مكان آخر (فليؤمن كل مواطن بما يشاء من كتب السماء وليعتنق ما يشاء من مذاهب الأرض . فالكل أمام الدولة والثورة سواء ولا فضل لمواطن على آخر إلا بمدى تعلقه بوطنه وارتباطه بالثورة) . .

وفى مكان ثالث من كتابه يقول الرئيس صدام حسين : (لأن الاستسلام للدعوات الرجعية لبعض الأوساط الدينية « والمقصود هنا هو الاسلام بالذات » يستلزم أن تترك دورك القيادى للمجتمع ، وأن تتخلى عنه لتنتظم فى صفوف حركة سلبية متخلفة تقتصر على التطلع إلى الماضى وتبدأ السلم من أوله) . .

ثم يقول فى مكان رابع (ولن يجدى كثيراً التظاهر بتعقب الرجعية « وهو يعنى هنا أيضاً الحركة الإسلامية » وتصور إمكانية احتوائها وإفراغها من سمومها عن طريق التداخل أو الالتحام المؤقت المحسوب « أى عن طريق الخداع » . ذلك لأن الرجعية الدينية وفق مثل هذه النظرية سوف تكون هى قائدة المسيرة لا أنت ، ولذلك فلن تكون أنت الذى سيقوم بتعبئة

الجماهير على هذا الطريق لتستطيع التحكم فى مساراته واتجاهاته اللاحقة لتكيفه وفق ما تريد ، وإنما هناك غيرك من أوساط الرجعية متخصصون فى هذه المسألة سيتولون هم الأمور على طريقتهم) .

هذه هى آراء صدام حسين المسجلة فى الدين وأصحابه . . فهل هناك مستزيد من الأدلة على زيف ادعاءاته بالحرص على الإسلام وطهارة بلاد المسلمين . وخاصة إذا أضفنا إليها الدلائل العملية المتمثلة فى مطاردته الإجرامية لعلماء المسلمين فى بلاده وخارجها وقيامه بالتصفية الجسدية للعديد منهم أو تعريضهم للسجن والتنكيل والإهانة والتعذيب الشديد ؟ . . لا أملك إلا أن أقول حسبنا الله ونعم الوكيل .

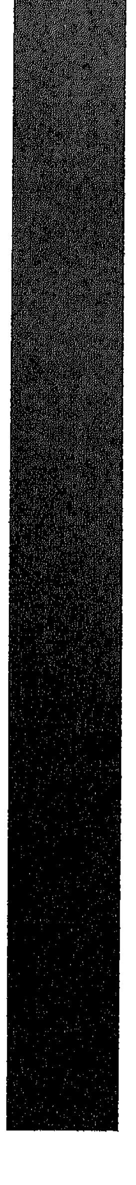
ثم دعونا نتساءل هنا بشىء من المصارحة عما قدمه العراق والدول المشايعة له للقضية الفلسطينية عبر تاريخها الطويل . فخلال الثلاثين سنة الماضية لم يقدم العراق أو الدول المشار إليها أى دعم حقيقى أو تضحيات ذات قيمة ، بينما قدمت كل من مصر وسوريا الدم الغالى لزهرة شبابها عبر أربعة حروب متتالية تسببت فى انهاكهما اقتصاديا إلى حد كبير . أما المملكة العربية السعودية فلا أظن أن هناك من يجهل دورها ودعمها وما قدمته لهذه القضية ، والذى لم يقتصر على المشاركة بالأرواح والدماء الزكية فى كل جولات الحروب المذكورة ، وإنما قدمت أيضاً المال بسخاء ولم تبخل بشىء انطلاقا من أنها كانت وما زالت تعتبر هذه القضية هى قضيتها وقضية العرب الأولى ، ولذا فهى تناصرها مناصرة استراتيجية وليست مناصرة تكتيكية تترفع من خلالها عن المتاجرة بالقضية أو بشعاراتها كما يفعل الآخرون .

بل ودعونا نتساءل عما قدمته تلك الدول المشار إليها لشعوبها ذاتها (وهذا أمر مهم جدا فى الواقع) . فنحن لا نرى فيها إلا أوضاعا اقتصادية متردية للغاية ومستوى معيشة منخفضا ولا وجود فى بعضها لبنية أساسية أو مقومات اقتصاد وطنى منتج . وما دمنا افترضنا المصارحة منذ البداية فدعونا نقول إن الأسباب الحقيقية للإخفاق فى إقامة هذه الأنظمة بناء سليما لهياكلها الاقتصادية والاجتماعية لا يرجع إلى الفقر أو ضيق ذات اليد

أو انعدام وجود ثروات وطنية يمكن توظيفها واستغلالها . وإنما يرجع إلى سوء الادارة وتفشى الفساد الذى تمخض عن نتيجتين هامتين : الأولى هى انعدام جدوى المساعدات الكثيرة التى تلقتها تلك الأنظمة فى إصلاح هياكلها . والثانية هى سهولة استغلالها وشرائها بالمال من قبل أنظمة متآمرة ومعتادة على الرشوة مثل نظام صدام حسين □



١٠



العدوان والجهد الضائع

الإعلام واحد من أقدم الممارسات البشرية التى عرفها الانسان ، حيث ظهر مع بداية محاولاته الأولى لتلبية نداء الطبيعة وتحقيق رغبته الغريزية التى فطره الله عليها فى العيش ضمن حياة الأسرة والجماعة . ولقد كانت أهداف الإعلام فى البداية ، مثلما كانت أساليبه ، بدائية وبسيطة . لكنها أخذت تنمو وتزداد تعقيدا مع مرور الزمن ، حتى لم يعد من السهل متابعتها وحصرها بدقة فى أيامنا الحاضرة . وهذا هو ما سبق أن أشرت إليه مرارا فى بعض أحاديثى .

ولأننا لسنا بصدد تناول الممارسة الإعلامية فى حد ذاتها بالدراسة الأكاديمية المتخصصة التى تتعرض لتاريخ ظهورها على الأرض أو تتعقب مراحل تطورها بالتفصيل . فحسبنا أن نكتفى هنا بالقول بإن الأعلام أصبح (ضمن عدد هائل من استخداماته الحديثة) يشكل جزءا أساسيا فى العمليات الحربية ، إما بمثابة الدعم المباشر والمؤثر للسلاح أو حتى بديلا عنه فى كثير من الأحيان .

ولقد شهد القرن العشرون الميلادى ، ظهور عدد غير محدد من وسائل الإعلام القوية والمتطورة . ولكن الملاحظ أن الاذاعة كانت وما زالت تحتل

مكان الصدارة فى مجال الفاعلية والتأثير ، لما تنفرد به عن غيرها من مزايا لا تتمتع بها الوسائل الأخرى مثل : سرعة وشمولية الانتشار الذى يمكن أن يغطى كامل الكرة الأرضية فى ثوان معدودة ، وأيضا لقلة تعقيد المنشآت والتجهيزات اللازمة لتشغيلها ، ولرخص سعر أجهزة الاستقبال (الراديو) وإمكانية مخاطبة البشر فى كل أنحاء العالم من خلالها بجميع لغاتهم وعلى مختلف مستوياتهم الثقافية .

ومن الإذاعات التى اكتسبت شهرة وانتشارا واسعا أيام الحرب العالمية الثانية : الإذاعة الألمانية والإذاعة الفرنسية ، وفى أيامنا هذه : إذاعة الـ (بى. بى . سى) البريطانية وإذاعة صوت أمريكا وإذاعة مونت كارلو .

ومع أن بعض هذه الإذاعات لم تكتسب شهرتها وانتشارها إلا من خلال المصداقية وعبر قوة إرسالها وتنوع مادتها وسعة إمكاناتها فى الحصول على الأخبار من شتى أنحاء العالم واستخدامها للمراسلين والمحللين الجيدين . . . إلخ . إلا أن هذا لا ينفى أن الظاهرة الملاصقة لهذه الشهرة وذلك الانتشار ، هى أن لبعضها وجهات نظر عقائدية لا تتورع عن حقنها فى أذهان المستمعين من خلال برامجها وبطريقة غير مباشرة .

ومثلما حدث أيام احتدام الحرب العراقية الإيرانية عندما كانت إيران تسخر جل جهودها وإمكاناتها الإعلامية وأجهزتها الدعائية ، لشن حملات التشهير الظالمة ضد المملكة ، بسبب وقوفها إلى جانب العراق وتصميمها على الحيلولة دون تعرضه للهزيمة المنكرة . فقد أصبح العراق هو الذى يقوم بهذه المهمة ، وبنفس المستوى من الشراسة ونفس القدر من السفالة والانحطاط .

فلقد فوجىء النظام العراقى (على غير ما كان يتوقع أو يتصور) بيقظة القيادة السعودية وسرعة تحركها عندما اتخذت القرار المناسب فى الوقت المناسب لوقف عدوانه وإفشال مخططاته التآمرية التى أنفق بالتعاون مع شركائه وقتا طويلا فى إعدادها والاستعداد لها ، بهدف السيطرة ، من خلال الهجوم الغادر والمباغت ، على مقدرات دول الخليج .

لذلك نلاحظ أن هذا النظام عندما استيقن من أن تدبيره خاب وارتبكت كل حساباته ، جن جنون قادته فلم يجدوا أمامهم سوى اللجوء الى الحرب الإعلامية مستخدمين الإذاعات التى اشتروها بأموال ومساعدات دول

الخليج لستر عوراتهم من جهة ولمحاولة الإساءة إلى المملكة من جهة أخرى ، تارة تحت اسم (إذاعة مكة المكرمة) وطورا باسم (إذاعة المدينة المنورة) ، وفى كل الحالات بالتشويش المستمر ليس فقط على إذاعة المملكة ، وانما أيضا على كل إذاعات العالم الحر ، وخصوصا خلال فترات الأخبار ، وذلك للحيلولة دون وصول صوت الحقيقة إلى الشعب العراقى وحرمان هذا الشعب من معرفة المصير المظلم الذى تدفعه إليه قيادته برعونتها وجهلها وعنادها . مما جعله يعيش عزلة فكرية تامة سوف لن يستفيق منها إلا بعد أن تحل الكارثة ويختفى المجرمون من مسرح الجريمة .

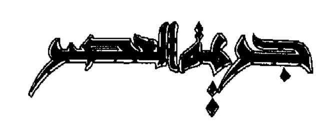
وهنا يجدر بنا أن نستعرض مثالا بسيطا يوضح الفرق بين القيادة الشرعية المؤهلة التى تؤمن بربها وتثق بنفسها وتشعر بقدرتها على الأخذ بيد شعبها إلى ما يعود عليه بالنفع والخير ويفتح له آفاق المساهمة فى صنع السلام وخدمة البشرية . وتلك التى تقفز إلى السلطة عن طريق الخداع والتضليل والاحتلال والتآمر ، ومن ثم يكون طبيعيا ألا تشعر بأى قدر من الاستقرار أو تطمئن إلى استمرار حكمها إلا من خلال البطش والمغامرة وفتح شهية الشعب للأطماع والطموحات غير المشروعة .

فبينما نلاحظ أن الرئيس العراقى قد بدد كل سنوات حكمه وثروات بلاده فى حرب عبثية لا داعى لها ولا طائل من ورائها وضرب نطاقا من الحصار الفكرى والإرهابى على شعبه وعمل جاهدا وعن عمد وسابق تخطيط على عزله عن العالم الخارجى حتى أصبح هذا الشعب يعيش خارج نطاق الواقع العقلى والدولى لا يرى سوى صورة رئيسه ولا يسمع إلا صوته وصوت أبواقه الدعائية المضللة . . نجد أن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وقد أنفق سنوات حكمه وهو يحقق لشعبه أعظم الإنجازات ويبذل قصارى جهده فى سباق مع الزمن لاستكمال تنفيذ خطط التنمية الطموحة التى تبنتها المملكة من أكثر من عشرين عاما ، وفى مقدمتها التنمية البشرية التى أشرف عليها شخصيا منذ أن كان يتولى أول وزارة للمعارف فى المملكة . وذلك من خلال ترسيخ مبادىء الإيمان والتمسك بشريعة الله أولا ثم بالتوسع فى برامج التعليم والتدريب وتيسير كل السبل المؤدية إليهما مهما بلغت التكاليف ، انطلاقا من قناعته بأن الانسان السعودى هو محور التنمية وهدفها النهائى وأغلى عناصرها .

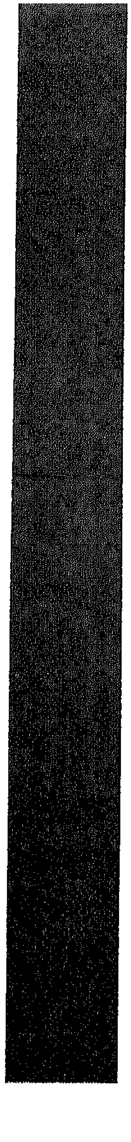
ولقد كان من نتائج هذا المسعى ومردوداته الخيرة أن أصبح الشعب

السعودى وفى زمن قياسى على درجة من الوعى والنضج الفكرى مكنته من إدراك حجم وأبعاد الجريمة العراقية فور وقوعها ولم تضلله الدعايات والأكاذيب التى تنضح بها أبواق الدعاية العراقية وأساليب الإثارة والتحريض الفجة عبر إذاعاته المصْطنعة التى لم تظفر بغير السخرية والاحتقار ولم يأبه طفل صغير ولو بكلمة واحدة مما تقوله منذ أن طالعنا صوتها المنكر والى أن يختفى قريبا بحول الله .

لقد كان لدى الشعب السعودى والحمد لله متسع من الوقت للتعرف على أساليب التضليل الإعلامى طوال حرب الخليج المعروفة بالحرب العراقية الإيرانية . بل ولقد عرف الشعب أيضا أو سمع أو قرأ عن إذاعات الرايخ وإعلام جوبلز الألمانى خلال سنوات الحرب العالمية الثانية وبعض إذاعات المنطقة خلال حقبة الستينيات . وعرف الشعب السعودى كذلك كم من الأخطاء ألصقت بغير مرتكبها وكم من البطولات نسبت إلى من لا يستحقها ، وذلك بفضل الاستخدام السىء وغير الأمين للإعلام . ثم عرف الشعب السعودى أخيرا أن السلاح الفعال لمواجهة مثل هذه الحروب الخبيثة هو أن تكون لديه القدرة على التمييز بين مصادر الحملات الإعلامية ، ومن ثم التعرف على دوافعها وأهدافها . . . وسوف يكون هذا كافيا تماما بحول الله □



١١



جزى الله الشدائد كل خير



لاشك أن العدوان العراقى الغادر على الكويت فى الساعات الأولى من صباح الخميس الثانى من أغسطس الماضى ١٩٩٠ ، وما تمخض عنه هذا العدوان من مضاعفات وتعقيدات كثيرة . قد كبد الأمة العربية خسائر فادحة لم يسبق أن تعرضت لها من قبل وأنزل بها من الأضرار المادية والمعنوية ما لم تشهده عبر تاريخها الطويل .

ولقد تجسدت الأضرار فى العديد من الصور وكان من بينها على سبيل المثال ، ذلك الاستنزاف الهائل للثروات والمدخرات العربية بصفة عامة والتقويض الشامل للبنية الأساسية فى كل من العراق والكويت بصفة خاصة ، والتى أنفق على إقامتها ما يصعب تعويضه أو تقدير قيمته من الوقت والجهد والمال . ناهيك عن تحول حاد فى منحنى التأييد والتعاطف الدولى تجاه القضية الفلسطينية لمصلحة إسرائيل بعد أن أضاع العالم العربى فى سبيلها مالا يمكن حصره من التضحيات على مدى نصف قرن من الزمان .

وبالرغم من كثرة الافرازات السلبية والمأساوية لهذا العدوان ، إلا أن واحدة من أكثر النتائج سوءا وأشذها قسوة ومرارة ، هى تلك التى كشف عنها

من صور الطمع والجشع والحقد التى يحملها لنا بعض الأشقاء ممن كنا نحاول أن نبنى معهم نهضتنا العربية ومستقبلنا المشترك .

ولقد فجعنا حقاً بما فضحته مواقف هؤلاء من نواياهم الشريرة التى حاولوا من خلالها وبأكثر الأساليب خسة ونذالة ، الدفاع المستميت عن الباغى الظالم الغادر وتجميل صورته أمام الرأى العام العربى والإسلامى والعالمى ، لمساعدته على إتمام جريمته وتمكينه من الإفلات بثمرتها الحرام . . الأمر الذى أسقط (ولو من وجهة نظرى الشخصية) وبشكل مؤسف ومؤلم للنفس ، ورقة التوت التى كانت تستر ما يعرف بالتضامن العربى .

وربما كان هناك من يلومنا ، قولا بأننا شاركنا على الأقل فى صنع هذا الوهم ثم استمرأنا العيش فى أحلامه من خلال السكوت عن هؤلاء المزيفين المضللين وعدم فضحهم فى الوقت المناسب . . . وقد يكون هذا صحيحا إلى حد كبير . حيث كنا بالفعل نعرف ، وعلى وجه التأكيد ، أن هناك من « الإخوة » من يستكثرون علينا ويستخسرون فينا نعمة الله ، سواء فى المال أو فى الاستقرار أو فيما وهبنا من قيادة حكيمة مخلصة وأمينة تتقى الله فى دينها وترعاه فى أبناء وطنها . بل كان هؤلاء وما زالوا يحسدوننا على خدمة الحرمين الشريفين التى شرفنا الله بها ، وكانوا يرون أنفسهم أحق منا وأولى بكل هذه النعم ، لأسباب يعلمونها هم وحدهم ودون غيرهم من البشر .

كذلك كنا نعرف أن هناك أنظمة « شقيقة » يشتعل حسدها ويتعاظم حقدها علينا كلما ازددنا لها عطاء وبالغنا فى رعايتها . . . وقد يكون هذا منطقا معكوسا وأمرا شديد الصعوبة على فهم البعض منا . غير أنه ليس كذلك تماما عند أولئك العارفين بمبادىء علم النفس والملمين بنظرياته ، خاصة فى مجال عقدة الشعور بالنقص ومحفزات الإحساس بالدونية . .

ومع ذلك ، فقد كنا نزداد حلما كلما ازدادوا لنا كراهية ونزداد تسامحا كلما ازدادوا حقدا ، على أمل أن يأتى اليوم الذى يدركون فيه أننا نقوم تجاههم بأكثر من الواجب وأنه إذا كان هناك عيب فإنه ليس فينا نحن وأن من صالحهم بقدر ما هو من صالحنا أن يكون جارهم فى خير ، لأنهم إن لم يستفيدوا منه فسيكفيهم شره . . . كذلك كنا نأمل أن يكون صبرنا واحتمالنا لجحودهم ونكرانهم ثمنا قليلا وتضحية هينة نقدمها عن طيب خاطر فى سبيل

جمع الكلمة والتئام الشمل وتحقيق التضامن العربى بمعناه الحقيقى فى نهاية الأمر .

وإذا كان هذا هو الجانب المظلم لواحدة من الصور المأساوية التى كشف عنها العدوان العراقى فى مجال العلاقات العربية/العربية . **فإن هناك لحسن الحظ جوانب أخرى مضيئة ومشرقة فى نفس الصورة ، منها على سبيل المثال عودة مصر إلى ممارسة دورها العربى والإسلامى الرائد والمؤثر فى ضبط الإيقاع السياسى فى المنطقة .**

وإذا كنت قد ذكرت كلمة « عودة » فذلك راجع إلى أن الدور المصرى الفعال والمواقف المصرية الأخلاقية ، ليست جديدة تماماً ، كما أنها لم تنشأ من فراغ . فمن ناحية كونها ليست جديدة ، نلاحظ أن مصر كانت دائماً وعلى مدى التاريخ العربى الحديث فى مقدمة الصفوف كلما دعا الداعى للذود عن حياض الأوطان والدفاع عن المصالح القومية والقضايا العربية ، مثل معارك التحرير فى الجزائر وقضايا الاستقلال فى السودان وفى الأردن وغيرها وغيرها .

أما قضية فلسطين ، فقد كانت قضية مصر المحورية والتى ظلت تتحمل من أجلها من التضحيات الغالية منذ عام ١٩٤٨ وحتى يومنا هذا ، مرورا بأربع جولات من الحرب الشرسة ضد إسرائيل والقوى الدولية المساندة لها ، ما لم تتحمله بقية الدول العربية مجتمعة . الأمر الذى تسبب فى إنهاك اقتصادها بدرجة كبيرة وأثقل على شعبها الصابر الشجاع . بل ولقد زاد من معاناتها المقاطعة العربية التى استمرت نحو عشر سنوات ، وكأنها كانت تلقى جزاء سنمار .

وأذكر أننى قرأت يوما منذ أكثر من عشرين عاما ، وضمن متطلبات دراستى للماجستير فى « الحكومات المقارنة » بالولايات المتحدة ، كتابا بعنوان (مصر : البحث عن مجتمع سياسى) ، لمؤلف يهودى معروف بصهيونيته يدعى / ناداف سافران . وكان موضوع الكتاب يدور حول حقبتى ما قبل ثورة ١٩٥٢ وحكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، محاولاً من خلال دراسة موضوعية تقديم تحليل لتلك الفترة وتصنيفها تحت إحدى الفئات المعروفة فى عالم السياسة .

والأمر الذى لفت انتباهى فى ذلك الكتاب ودعانى للاستشهاد به اليوم فى هذا الحديث ، هو ما أشار إليه المؤلف من أن مصر كانت فى حقبة الثلاثينيات الميلادية تمثل مجتمعا سياسيا مزدهرا يموج بالحركة الوطنية النشطة ، (سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعدلى يكن وغيرهم) وأحزابا متعددة تتنافس بقوة من خلال حرية الرأى فى التعبير عن مبادئها وانتمائها الوطنى ومحاربة الاحتلال البريطانى .

وإذا كان المسار السياسى ـ كما يقول بعض المفكرين ـ هو الانعكاس الطبيعى للمسار الاقتصادى ، وكلاهما يتأثر إلى حد كبير بالمكونات الشخصية والاتجاهات الأيديولوجية للرئيس (خاصة فى العالم الثالث) ، **فإن هذا ينطبق أكثر ما ينطبق على فترة حكم الرئيس عبد الناصر ويعطينا تفسيراً مقنعاً لعدم وضوح الخط السياسى لمصر خلال فترة حكمه ، وإلى حد ما خلال فترة حكم الرئيس السادات . حيث كان هذا الخط متأرجحا بين الديمقراطية والحكم الشمولى تبعا لتأرجح الخط الاقتصادى بين الرأسمالية والاشتراكية ، بل وبين الاشتراكية الدولية بنماذجها المعروفة وبين ما أطلق عليه الاشتراكية الوطنية النابعة من واقع المجتمع المصرى .**

وهذا بالطبع ليس إلا مجرد عرض موضوعى للواقع من وجهة نظر شخصية بحتة ، بصرف النظر عن الظروف والملابسات التى أدت إليه وبصرف النظر أيضا عن خطأ أو صواب تلك التوجهات السياسية والاقتصادية . وهدفى من ذلك هو التركيز على معنيين محددين : الأول هو إثبات عمق التجربة السياسية المصرية التى كانت فى أوجها منذ أوائل القرن الميلادى الحالى الذى شارف على نهايته فى الوقت الذى لم تكن هناك أنظمة مماثلة فى المنطقة . أو على الأصح لم تكن العديد من الدول الحالية قد ظهرت إلى حيز الوجود ، **أما المعنى الثانى فهو إبراز حجم الإنجاز الذى تحقق فى عهد الرئيس الحالى حسنى مبارك .**

وفيما يتعلق بهذا الجزء من الحديث ، فسوف أتركه لمن هم أحق منى بتسجيله وتأريخه ، وسيقتصر دورى على مجرد نقله فقط . حيث يقول الأستاذ صلاح منتصر الكاتب المصرى المعروف فى إحدى افتتاحياته بمجلة أكتوبر التى يرأس تحريرها ولا أذكر تاريخا الآن « كانت السمة الخاصة المميزة والمشتركة بين كل من عبد الناصر والسادات هى الطموح الشخصى

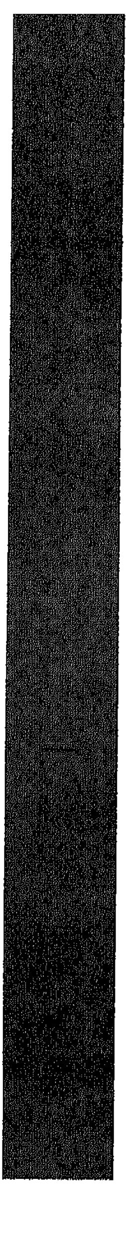
والسعى إلى تأكيد الزعامة ، انطلاقا من الخبرة المحدودة التى اكتسبها كل منهما فى مجال العمل الوطنى قبل الثورة . أما الرئيس حسنى مبارك فقد جاء إلى الحكم بغير ترتيب أو تخطيط مسبق من جانبه ، بل ولا حتى طموحات إلى الزعامة . لذا فقد انصب اهتمامه على العمل والإنجاز دون صخب ودون إعارة اهتمام للأعمال المثيرة والقرارات المفاجئة التى تحدث الفرقعات الإعلامية والصدمات الكهربائية التى تتأثر بها الجماهير .

وليس هذا بالطبع هو مقام المقارنة بين الرؤساء الثلاثة ولا هو مقام المفاضلة بينهم ، فلكل إنجازاته فى نطاق إمكاناته وظروفه وقت ممارسته لمهامه . غير أن إنجازات الرئيس مبارك كانت على درجة عالية من الأهمية وتتمثل فى إعادة تشييد البنية الأساسية واستكمال البناء الديموقراطى وتحسين وسائل الإنتاج ، خاصة وأنه جاء إلى الحكم فى وقت كانت جميع مرافق البنية الأساسية بحاجة إلى التجديد الشامل وكان العديد من المصانع على وشك التوقف بسبب عدم متابعة عمليات الإحلال والتجديد ، كما كانت العلاقات المصرية العربية قد وصلت إلى مستوى متدن جدا وأصبحت فواتير الديون التى تمت فى العهد السابق مستحقة السداد فى الوقت الذى ارتفعت الأسعار بشكل حاد وتجاوزت زيادة السكان الحدود التى يحتملها اقتصاد البلاد .

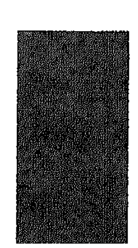
ونخلص من هذا العرض السريع إلى ما بدأنا به ، من أن الموقف المبدئى الأخلاقى الشريف الذى اتخذته مصر من قضية العدوان العراقى على الكويت ، ليس جديدا ولا هو بغريب عليها ، بل هو الموقف الذى كنا نتوقعه منها تماما . ليس فقط لثقتنا التامة فى صدق أخوتها ونقاء سريرتها وعلو همتها وأصالة شعبها ، وإنما أيضا لأنه الموقف الذى ينسجم مع مكانتها العربية والدولية والإسلامية وتاريخها الحضارى ويتمشى مع ما عرف عن قيادتها من حكمة ونزاهة وبعد نظر .

الأمر الذى يؤكد ما سبق وأن أشرنا إليه مرارا من أن نعم الله الكبرى على شعب ما أن يهبه قيادة أمينة مخلصة وواعية ، تعمل لصالحه قبل أن تعمل لصالحها ، وتحرص على سلامته قبل أن تحرص على سلامتها ، وتدفعه إلى العمل الذى يجلب له الخير والرفاهية ويكسبه المحبة والاحترام بين الشعوب بدلا من أن تقوده إلى الهلاك والدمار والعياذ بالله .

١٢



التضليل الاعلامى .. دستورا



قد لا أضيف جديداً هنا إذا تحدثت عن تنامى أهمية الإعلام الحديث وتأثير وسائل الاتصالات فى حياتنا المعاصرة ، حيث يمثل المرء بالنسبة لمعظم هذه الوسائل مجرد وعاء تصب فيه كما هائلا من الأخبار والمعلومات المطلوب إدخالها فى عقله وترسيخها فى ذهنه ومن ثم قيادته وتوجيهه - بغير إرادته - لكى يدور فى دائرة الأحداث على النحو المخطط له سلفا . وذلك عبر تيار متدفق من التحليلات والكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية التى تلاحقه فى كل مكان بشكل مكثف وعلى مدار الساعة وبصورة تؤكد ما ذهب إليه البعض من أن الإعلام الحديث أصبح « يفكر لنا » ، بمعنى أنه لا يدع لنا مجالا نفكر لأنفسنا .

لذلك ، فاننى لا أعتزم أن أتعرض اليوم لهذا الجانب من جوانب الإعلام ، وانما يقتصر اهتمامى على استعراض نماذج لبعض مدارسه الحديثة وتحليل اتجاهاتها ومفاهيمها . راجيا أن يضع القارىء فى اعتباره أن ما سوف أشير إليه هنا على اعتبار أنه من مدارس الإعلام المختلفة ، لا يعتمد فى الواقع على الدراسات الأكاديمية والنظريات المتخصصة . بل على الاستقراء

التاريخى البسيط ومن خلال المتابعة المستمرة والخبرة العملية المكتسبة فى هذا المجال .

وبادىء ذى بدء . أود القول بأن الإعلام المعاصر مر خلال السنوات العشرين الأخيرة بمراحل متعددة . فنحن عندما نتابع الإعلام العراقى على سبيل المثال ، وأبواقه الدعائية وأصداءه فى عمان وفى صنعاء وغيرها من الدول ذات الأنظمة التى تحركها الأحقاد ويحكم سلوكها الطمع والجشع والعياذ بالله ، نجد أنه يتبع أساليب الكذب والخداع واغتيال الحقيقة عمدا كل يوم مئات المرات دون أدنى قدر من الخجل أو احترام الذات أو حتى احترام عقلية شعوبها وحقها فى معرفة الحقيقة . بل ونجد أن هذه الشعوب هى نفسها المستهدف الأول والأخير بكل هذا القدر من الزيف والتضليل .

أقول إن متابعة إعلام تلك الدول تظهر البون الشاسع بين الحقيقة والزيف فى ممارستها . فعلى سبيل المثال هنا ، ولمجرد الاستدلال فقط ، فقد لوحظ عند بدء العمليات العسكرية من خلال المرحلة الأولى (الجوية) من مهمة القوات المشتركة لتحرير الكويت ، أن الإعلام العراقى بدأ يبث تصريحات رسمية باسم بيانات عسكرية تقول إن القوات العراقية كانت تسقط كل يوم عشرات من طائرات القوات المشتركة وإلى أن وصلت بالعدد الإجمالى لهذه الطائرات التى تم إسقاطها بعد عدة أيام إلى بضعة مئات . ثم عندما بدأت الحقائق تتضح وتفضح زيف هذه الأكاذيب ، سارعت الأبواق العراقية إلى استبدال كلمة « أهداف جوية » بكلمة « طائرات » . وكان المستهدف بكل هذه المعلومات المضللة هو بالطبع الشعب العراقى نفسه ، لأن الآخرين يعرفون الحقيقة ويلامسونها . الأمر الذى يذكرنا بحقبة غير مستحبة من تاريخنا غير البعيد والتى يطلق عليها « مدرسة أحمد سعيد » . . .

وبأسلوب إنشائى طنان لا جوهر له ولا جسد ، كما سبق وأن أشرت فى إحدى مقالاتى ، يتبع الإعلام الدعائى العراقى أسلوب الإعلام الألمانى قبل نحو نصف قرن من الزمان أو ما يعرف بـ « مدرسة جوبلز » . وقد استعان الإعلام العراقى فى هذا الصدد بالخبرة الألمانية الشرقية ، كما استعان بها أيضا فى مجال التصنيع العسكرى وخاصة فيما يتعلق بالأسلحة الكيميائية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل ، وأيضا فى مجال التجسس والتدريب على أعمال الإرهاب .

ويمكن القول بأن الإعلام العراقى يعتبر فى حد ذاته مدرسة هزيلة وممسوخة تقع فى نقطة ما بين « مدرسة جوبلز » و « مدرسة أحمد سعيد » . ولنا هنا وقفة لابد وأن نشير من خلالها إلى أن « المدرسة الإعلامية المصرية الحديثة » فى عهد فخامة الرئيس حسنى مبارك ، تعد من وجهة نظرى وفى تقديرى الخاص ، من أفضل مدارس الإعلام وتوجهاته فى العالمين العربى والإسلامى . .

وأعود فأقول ، إن التضليل كمبدأ أو كوسيلة ، هو جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية الإعلامية للعراق . وهو كما أسلفت يقوم على بث الأخبار والتحليلات المضللة . وكما سبق القول أيضا ، فإن عملية التضليل ولو أنها طريقة بدائية وغير فعالة على المدى البعيد ، بل وقد تكون ذات تأثير عكسى فيما يتعلق بمصداقية الوسيلة الإعلامية ذاتها . إلا أنها للأسف تستطيع تحقيق نتائج سلبية وقتية مثل تأجيج مشاعر الرأى العام والتأثير على المواقف ،خصوصا فى الدول التى لدى شعوبها « قابلية مسبقة » (SUSCEPTIBILITY) ، أى استعداد لتقبل مثل هذه المعلومات الكاذبة .

ولو حاولنا أن نتناول هنا أسلوب التضليل الإعلامى العراقى منذ بدء احتلاله للكويت (وهذا موضوع يستحق فى تقديرى أن تتم معالجته من خلال رسالة علمية جامعية) ، فسنلاحظ أنه قام على الدعائم التالية :

١ ـ الكويت جزء لا يتجزأ من العراق .

٢ ـ العراق أقوى من أى تحالف حيث أنه يحارب على أرضه ومن مواقع دفاعية محصنة ومنيعة .

٣ ـ العراق باحتلاله للكويت انما يسترجع حقه التاريخى ، وهو الطريق الأقصر لتحرير فلسطين ؟ .

٤ ـ الادعاء بأن إسرائيل تساعد القوات الحليفة فى الخليج .

٥ ـ « أم الكبائر » القول بأن حاكم العراق صاحب رسالة إسلامية وأن صدام حسين الذى أضيف إلى ألقابه وأسمائه التسعة والتسعين ، اسم « المجاهد » تحركه نزعات ودوافع إسلامية بحتة .

٦ ـ الادعاء بأن بعض قوات التحالف المشتركة موجودة فى مكة المكرمة والمدينة

المنورة ، لكى يلهب مشاعر الدهماء فى الدول التى تؤيده كسبا للمواقف السياسية ..

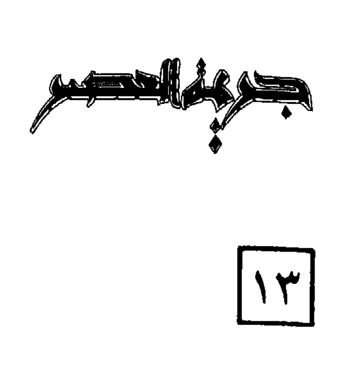
٧ ـ الادعاء بأن القوات العراقية تحقق مكاسب عسكرية هامة كعملية الخفجى والتى أثبتت مرة أخرى أن صدام حسين لا يولى حياة الإنسان أى قيمة أو اعتبار خصوصا إذا كان هذا الإنسان عراقيا . . وكذلك ادعاء أبواقه منذ بدء العمليات البرية بأن قواته تحقق انتصارات ساحقة على الرغم من أن جنوده يستسلمون بالآلاف ، بل يُقبّلون من يستسلمون لهم ، وهى ظاهرة ربما كانت الأولى فى تاريخ الحروب . .

٨ ـ انطلاقا من هذه القاعدة وقياسا على هذه الممارسات ، فسوف يدّعى صدام حسين بعد انتهاء عملية تحرير الكويت (اذا بقى فى الحكم) بأنه انتصر لأنه تحدى أقوى دول العالم .

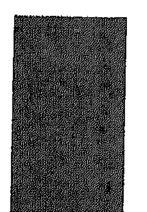
كانت هذه مجرد عينات ونماذج من مسلسل التضليل الإعلامى لصدام حسين ، والذى يستهدف به الشعب العراقى بالدرجة الأولى ثم بعض الشعوب العربية المفترى عليها والتى لعلها بدأت تستفيق الآن من غفلتها ، وأول تلك الشعوب هو الشعب الفلسطينى .

كذلك فلابد من الإشارة هنا أيضا إلى أن أسلوب التضليل الإعلامى يعتبر جزءا من التكوين النفسى والأخلاقى للرئيس صدام حسين وواحدا من أهم الركائز فى الاستراتيجية الحزبية الخاصة به والتى وصل عن طريقها إلى حكم البلاد .

ولن أقول إن هذا الأسلوب وكل ما ينتج عنه أو يترتب عليه من آثار ، ليس إلا فقاعات هوائية فارغة لا تختلف كثيرا عن فقاعات الصابون التى سرعان ما تنفجر وتتلاشى بمجرد احتكاكها بالحقيقة ، والتاريخ نفسه شاهد عدل على ما كان يبثه إعلام مدرسة « جو بلز » والتى كانت من الناحية التكتيكية أبرع كثيرا من مدرسة الدعاية العراقية . ولكن لندع الشعوب العربية والإسلامية نفسها ، والزمن أيضا ، يصدرون حكمهم على مثل هذه المدارس والاتجاهات التى تتخذ من الكذب والزيف والتضليل أساسا لبنائها الهش . أما نحن فقد علمنا ديننا الحنيف أن « ما ينفع الناس يبقى فى الأرض ، أما الزبد فيذهب جفاء » □



ومن الاعلام ماقتل



بعد أن انقشع غبار الزلزال ، وبدت بوادر انحسار الحطر الناجم عن العدوان العراقى على الكويت . تعالوا بنا نلقى نظرة على مسرح الأحداث ، لعلنا نعثر بين ركامه على الأسباب التى أدت إلى وقوع هذا الحادث المفجع . أو تلك التى يمكن أن تجعل إنسانا ينقلب فى لحظات إلى وحش ضار لا قلب له ولا عقل ولا ضمير . أعماه الحقد وتسلطت عليه نزعات الخيانة والغدر فلم يعد يرى له من هدف سوى الانتقام وإحداث أكبر قدر من الخراب والتدمير .

وفى تقديرى الشخصى ، فإن أهم أسباب هذه المأساة المؤلمة ، إن لم يكن سببها الوحيد ، هو ما سبق وأن ذكرت من قبل ، شخصية الرئيس العراقى نفسه . ذلك الرجل الذى ثبت بالدليل الذى لا يقبل الشك أن رغبة مجنونة تسيطر عليه بأن يصبح زعيما عالميا ، أو على الأقل إقليميا ، يدخل التاريخ من أوسع أبوابه ، فإذا لم يستطع فمن أى باب وبأية وسيلة ، مهما كان الثمن فادحا أو كان الطريق محفوفا بالمخاطر .

ويُرجع المختصون هذا الشكل المرضى من أشكال الطموح الذى يفتقد صدام حسين كل المؤهلات الموضوعية اللازمة لتحقيقه ، إلى تكوينه

النفسى المشوه الذى يُعزى بدوره إلى ما يعانيه الرجل منذ طفولته ومراحل صباه المبكر من ظروف نشأة وتربية قاسية تركت فى نفسه آثاراً عميقة من مشاعر الحسد الممزوج بالحقد تجاه المجتمع ، والتى انعكست فى صورة رغبة طاغية فى تسيد هذا المجتمع وإخضاعه لإرادته مع الإحساس بلذة غامرة فى ممارسة القهر والتعذيب والقتل والدمار . . **ولتحقيق هذه الرغبات المرضية ، يتبع صدام حسين إلى جانب التآمر والخديعة والغدر ، أساليب أخرى عديدة أهمها « الرشوة » و « الابتزاز » و « الإعلام » . .**

فالمتابع لسلوكيات صدام حسين ـ الخاصة منها والعامة ـ يلاحظ أنه يميل دائماً إلى استخدام الرشوة فى كل تعاملاته مع الآخرين ، وهو يوظفها على نطاق واسع لكسب التأييد وشراء الولاء من أصحاب الذمم المرنة والحصول على ما يريد ، بصرف النظر عما يسببه ذلك من إضرار بمصالح الغير ، بل وحتى بمصالح المرتشين أنفسهم إذ أن الخدمات التى يكلفهم بها هى غالبا غير مشروعة ، ومن ثم يفقدون فى مقابلها مصداقيتهم (كما حدث مع الذين أيدوه ظلما فى عدوانه على الكويت) .

وحتى نتعرف على بعض صور استخدام الرشوة على النطاق المحلى العراقى ، يمكن أن نستعرض هنا نموذجين اثنين على سبيل المثال ، هما الحزب والحرس الجمهورى . فبالنسبة للعمل الحزبى فى العراق ، لعل كل شخص عراقى ، بل وأيضاً كل من قام بزيارة للعراق وتعرف خلالها على أحواله من الداخل ، لابد قد عرف ولمس أن أعضاء الحزب الحاكم يتمتعون دون غيرهم بمزايا مادية ومعنوية هائلة لا يحلم بالحصول على مثلها المواطن العراقى العادى . . لذلك فقد أصبح الانضمام إلى عضوية الحزب هو السبيل الوحيد لضمان الأمن الشخصى والاجتماعى والحياة الكريمة للمواطن العراقى . خاصة وأن جميع أعضاء الحزب يتسيدون بقية أفراد الشعب بتشجيع وتحريض من السلطة ، كما يعملون بالتجسس عليهم وتقديم التقارير الكيدية المغرضة والانتقامية فى معظم الأحيان .

أما فيما يتعلق بالحرس الجمهورى ، والذى يزيد تعداده على المائة والخمسين ألف رجل ، فله مهمة رئيسية وحيدة هى السهر على حراسة صدام حسين شخصيا وحماية نظامه الفاشى البغيض . ليس فقط من خطر قد يأتيه من الخارج ، وإنما أيضاً ، والأكثر احتمالا ، من خطر يأتيه من

الداخل ، وعلى وجه التحديد من بقية تشكيلات الجيش العراقى الأخرى .

لذلك نجد أن صدام حسين ينفق على هذا الجيش الجمهورى ببذخ شديد ويزوده بأحدث الأسلحة وأغلاها ويغدق على أفراده (على سبيل الرشوة) لكى يستميتوا فى حمايته وليكون دفاعهم عنه هو فى واقع الأمر دفاعا عن مصالحهم الشخصية وذودا عن حياة الرفاهية والرغد التى ينعمون بها من دون بقية أفراد الشعب ، بل ومن دون بقية أفراد الجيش ، والمرتبطة ارتباطا عضويا بوجود صدام حسين نفسه وبسلامته .

وبالنسبة للمجال الخارجى ، فقد أصبحت فضائح الرشوة التى قيل إن صدام حسين يقدمها إلى بعض الزعامات والقيادات المصطنعة فى المنطقة وأيضا لضعاف النفوس ممن يُحسبون على أهل الفكر والثقافة وأولئك الذين يملكون وسائل التأثير على الرأى العام . لقد أصبحت هذه الفضائح معروفة ومشهورة وموثقة ، ولم تعد تدور حول الوعود الوردية باقتسام الغنائم وما شابه ذلك ، بل أخذت شكلها العملى ممثلا فى القناطير المقنطرة من الذهب الحرام المسروق من الكويت .

كما أصبحت معروفة أيضا قصص تلك الهدايا الغريبة والمريبة التى كانت تقدم لكبار المسئولين والمفكرين ورجال الثقافة والاعلام فى الوطن العربى الذين يُدعون لزيارة العراق تحت شتى المسميات وتُفتعل لها المناسبات افتعالا ، والتى كانت تشمل أشياء ثمينة جدا مثل الفيلات والسيارات الفاخرة ، فى الوقت الذى كان العراق يمر بضائقة وأوقات صعبة وظروف مالية واقتصادية بالغة السوء بعد خروجه منهكا من حرب الثمانى سنوات التى ضاعت خلالها كل أرصدته وأصبحت ديونه تطاول الجبال .

أما أولئك الذين يتعذر إخضاعهم بالرشوة ، ويترفعون عن التعامل بمثل هذا الأسلوب الوقح غير الأخلاقى . فلهم عند صدام حسين سلاح آخر يناسبهم ويتلاءم مع حالتهم . ألا وهو سلاح الابتزاز ، والذى يعتبر الاغتيال واحتجاز الرهائن البريئة من النساء والأطفال والمدنيين العزل ، بعض أشكاله الأكثر شيوعا والأكثر استخداما فى مدرسة صدام حسين الإرهابية المشتركة .

وأخيرا هناك سلاح صدام حسين المفضل ، وهو سلاح « جوبلز » أو « الإعلام الأسود » الذى يقوم أساساً على النظرية الميكافيلية . ولقد سبق

أن **تطرقت فى حديثى الأخير** بعنوان « التضليل الاعلامى . . دستوراً » إلى نفس هذا الموضوع كمثال للممارسات الإعلامية العراقية خلال فترة احتلال الكويت . واليوم يمكن أن نضيف إلى ما ذكرناه فى الحديث السابق المشار إليه ، بعض النماذج الأخرى لهذه الممارسات ولنفس الفترة والتى تنقسم إلى ثلاث مراحل على النحو التالى :

فبعد أن قدم صدام حسين عدوانه للعالم ـ عبر وسائله الإعلامية ـ على أنه عمل من أعمال الشهامة والمروءة والنخوة ، أخذت أبواقه والأبواق العميلة المساندة له تواطؤا وتآمرا ، والتى أثمرت فى أرضها الرشوة ، تطلق طوفانا من الأكاذيب التى كانت تدعى أنها قرارات وتسميها بيانات رسمية صادرة عن « حكومة الكويت المؤقتة ، والتى انكشف أمرها فيما بعد وثبت للعالم أنه لم يكن لهذه الحكومة المؤقتة وجود إلا فى استديوهات الإذاعة العراقية ، وأنه (أى العالم) تعرض لعملية تضليل منظمة ومخططة بإحكام بهدف التعتيم على أبشع جريمة نصب واحتيال عرفها التاريخ الحديث والمعاصر .

كذلك كانت تصرفات القيادة العراقية خالية من الذوق واللياقة ، بعيدة عن الأصول الدبلوماسية والأعراف الدولية المرعية . لأن هذه القيادة كانت منصرفة تماما وبكليتها إلى متابعة مخططها التآمرى وتركز فقط على الأهداف الدعائية ، انطلاقا من قناعتها ، أو تصورها ، بأن هذا الأسلوب الإعلامى الدعائى التضليلى يمكن أن يكون بديلا مناسبا عن خضوعها للشرعية الدولية . وقد رأينا صدام حسين وهو يحاول الظهور بمظهر القوى ، لإعطاء الانطباع بأنه واثق من قدرته على تحدى القوى العظمى ، بل وإنزال الهزيمة بقوات التحالف ، ولا يهمه ما كان يجرى على قدم وساق من حشود فى ذلك الوقت .

وفى إطار مساعيه الفاشلة أيضا لرفع معنويات جنوده المنهارة ، وبث روح اليأس والإحباط لدى القوات المتحالفة وشعوبها . رأينا صدام حسين ينظم رحلة سرية يزور خلالها الكويت مصطحبا كاميرات التليفزيون لتصويره وهو واقف بين جنوده يطل على ساحل الخليج مقلدا موشى دايان عندما فعل شيئا مماثلا على ضفاف قناة السويس فى أعقاب حرب ١٩٦٧ .

ومرة أخرى ، وفى نفس الاطار ، رأينا صدام حسين ينظم استقبالا

دعائيا آخر يلتقى خلاله مع عدد من رهائنه الدبلوماسيين . ثم يتظرف بمداعبة طفل بريطانى صغير (من بين الرهائن) وهو يربت على رأسه ، وبنفس الأسلوب الذى فعله هتلر مع البولنديين منذ أكثر من خمسين عاماً . . ولعل هذا المعنى بالذات يكون قد ذكر بعض القراء بما سبق أن ذكرته فى أكثر من حديث من قبل حول هوية الأيدى التى تخطط لممارسات صدام حسين الإرهابية وتوجه أبواقه الكاذبة وإعلامه المضلل .

وفى المرحلة التالية ، المواكبة لبدء عمليات (عاصفة الصحراء) ، استمرت محاولات الخداع الإعلامى العراقى ، لتصنع ستاراً كثيفاً من الأكاذيب ، لعله يحجب الفشل الذى منيت به القيادة العراقية فى مواجهة الغارات الجوية التى كانت تقوم بها القوات المتحالفة ، أو تقليل الخسائر الفادحة التى كانت تنزل بالقوات العراقية والقدرات العسكرية العراقية والبنية الأساسية فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار وعلى مدى أربعين يوماً متتالية .

ومن أمثلة هذه المحاولات الفجة والساذجة ، ذلك الشريط التليفزيونى الذى يصور صدام حسين وهو يتجول فى شوارع بغداد محاطا بعدد من حراسه والجماهير تتسابق على تحيته وتقبيل يده وهو يبتسم فى زهو وخيلاء . . ثم الشريط الآخر الذى يصور اجتماعاً لمجلس قيادة الثورة العراقية وصدام حسين يتبادل معهم النكات وعلامات السرور والمرح بادية على وجوههم . وكأن كل ما كنا نسمعه من أخبار الدمار الذى حل بالعراق غير صحيح ولا أساس له على الإطلاق ، لأنه ليس معقولا أن تكون هذه الأخبار صحيحة بينما المسئولون عن سلامة ومصالح هذا الشعب يتبادلون الملح الظريفة على هذا النحو المفجع . اللهم إلا إذا كان بيننا من يظن أنهم جماعة من السفهاء والمجانين .

ولعل أسخف نكتة سمعها العالم فى ذلك الوقت العصيب ، تلك التى أطلقها صدام حسين بنفسه ، وكان ذلك عندما التقاه مندوب محطة التليفزيون الأمريكية وسأله عن مدى إمكانية انتصار الحلفاء واحتمالات هزيمة العراق ، حيث أجاب صدام حسين فى ثقة مصطنعة وأسلوب تمثيلى يحسده عليه الكثير من الفنانين ، بأنه لا يشك فى الانتصار (أى انتصاره هو) ولا بنسبة واحد فى المليون . .

أما فى المرحلة الثالثة والأخيرة ، وهى المرحلة التالية لهزيمة صدام حسين وتسليمه بكل مطالب التحالف وعلى رأسها الانسحاب الفورى غير المشروط وإلغاء قرار ضم الكويت والالتزام بتنفيذ كافة القرارات الصادرة من مجلس الأمن بشأن احتلال الكويت . فنلاحظ أن لهجة الصلف والعنجهية انتهت ، كما اختفت أشرطة التليفزيون وحلت محلها التسجيلات الإذاعية فقط . ولكن مع استمرار طابع الكذب والتمسك بأسلوب التضليل والخداع للشعب العراقى بالادعاء أنه انتصر على قوات التحالف الدولى وأن جنوده النشامى حققوا كل أهدافهم !! .

وأخيراً ، ترى ما هى المحصلة النهائية للنتائج التى حققها صدام حسين من وراء إعلامه الكاذب المضلل ، وما هى العبرة التى يمكن استخلاصها من هذه التجربة المريرة ؟ . . وقد لا أجدنى هنا بحاجة إلى الإجابة عن التساؤ ل الأول ، نظرا لأن القارىء يرى بنفسه أن صدام حسين لم يخدع بذلك إلا نفسه ، وأن كل جهوده وأمواله التى أنفقها فى هذا الصدد ذهبت سدى لأن العالم كله يعرف الحقيقة ويعرف أن صدام حسين منى بهزيمة منكرة وتجرع كأس الذل والعار وأثبت أنه لم يكن زعيما ولا قائدا وإنما كان نصابا ومحتالا خائبا أهدر من أرواح شعبه ، ظلما وعدوانا وبغيا ، عشرات آلاف الضحايا ، كما ألحق بالكويت وببلاده نفسها من الخراب والدمار ما يصعب إصلاحه وما لن ينساه التاريخ ، علاوة على ما ألحقه بالعلاقات العربية والتضامن العربى من الضرر الذى قد يتعذر معالجته وإصلاحه قبل مضى عشرات السنين .

أما إذا أردنا استخلاص العبرة ، فأظنها أيضا واضحة على ما يبدو لى ، وهى أن زمن الخداع والتضليل والأساليب الإعلامية الفجة والملتوية التى تعتمد على نظريات جوبلز التى مضى عليها أكثر من نصف قرن من الزمان ، قد ولى وانتهى حيث أصبحت هناك وسائل تقنية حديثة تستطيع حمل الحقيقة إلى ما وراء الأبواب المغلقة واختراق أعتى الحواجز والتحصينات . بل وتستطيع هذه الوسائل استغلال الإعلام المتخلف لتستخدمه ضد صاحبه نفسه .

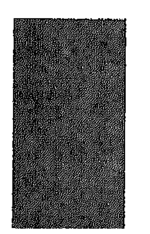
ولقد رأينا كيف أن وسائل الإعلام الغربية تلقفت أكاذيب صدام حسين وتهديداته الجوفاء وادعاءاته بأنه يملك رابع قوة مسلحة فى العالم وأن جيشه

النظامى مكون من مليون جندى ويستطيع تجنيد خمسة ملايين آخرين ، وأنه قادر على تحدى القوى العظمى ومستعد لاستخدام أسلحة الدمار الشامل إذا حاول أحد إجباره على الانسحاب من الكويت . فقد أخذت هذه الوسائل الغربية تردد هى الأخرى نفس الادعاءات وتروجها حتى صدقها صدام حسين نفسه (ووحده) ، ثم استخدمت هذا الانطباع فى إقناع دول العالم والرأى العام العالمى بضرورة ، أوعلى الأقل قبول ، التخلص من هذه القوة الخطرة على السلام العالمى والتى لا تلتزم بالشرعية . كما شحذت بتلك الأكاذيب همة مقاتلى التحالف الذين أفهموا أنهم يواجهون قوات بالغة القوة والشراسة . . ومن ثم كانت الهزيمة سريعة وساحقة . . وعلى نفسها جنت براقش □

١٤



حتى لا نبنى قلاعا من رمال



في الأسابيع الماضية ، كثر الحديث وتعددت الاجتهادات وبُذلت المحاولات لبلورة التصور الأمثل لما يجب أن يكون عليه مستقبل العلاقات العربية العربية فى ظل النظام الأمنى الجديد لدول المنطقة فيما بعد مرحلة العدوان العراقى على الكويت وكنتيجة مباشرة لهذا العدوان الذى قلب كل الموازين وتمخض عن عدد من الآثار والنتائج التى أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها مأساوية ومفجعة .

وليس من شك فى أن مثل هذه الاجتهادات أو التصورات ، بكل ما تشتمل عليه من تنوع فى الآراء واختلاف فى وجهات النظر وتعدد فى زوايا المعالجة الفكرية ، هى فى واقع الأمر ظاهرة صحية لا غبار عليها ، من حيث كونها رد فعل طبيعى متوقع ، نابع من الإحساس الواعى والحس السليم لدى الكثير من المفكرين والسياسيين والمسئولين وغيرهم من المهتمين بشئون السياسة والمتابعين لحركة الأحداث العالمية والمحلية ، بحجم الكارثة وما خلفته من دمار مادى واسع النطاق وآثار نفسية كان لها وقع الصاعقة على شعوب العالم وانعكست فى شكل ذهول تام وقلق بالغ على أمن واستقرار هذه المنطقة .

فلقد أظهر العدوان العراقى على الكويت ، بوضوح لا يحتمل اللبس ويقين لا يقبل الجدل ، أن دول المنطقة ، وخاصة النفطية منها ، ليست مستهدفة فى أمنها واستقرارها أو مهددة فى استقلالها وثرواتها وسلامة شعوبها من قبل بعض القوى التوسعية الاستيطانية (المعروفة) فقط . بل وأنها قد تكون مستهدفة لأفدح من هذه الأخطار وأعظم من هذه الأطماع من داخل الأسرة العربية والإسلامية نفسها .

وكان طبيعيا أن يؤدى الكشف عن هذه الحقائق التى لم تخطر على بال إنسان من قبل ، إلى عملية خلط لجميع الأوراق وإعادة ترتيب للأولويات ، سواء بالنسبة للأمن الفردى والجماعى لدول المنطقة ، أو فيما يتعلق بتحديد مصادر الخطر تحديدا دقيقا وموضوعيا يقوم على أساس ما أسفرت عنه التجربة العملية والخبرة المكتسبة ، وليس على أساس المظاهر الخادعة والشعارات البراقية التى ظللنا نرددها (ربما عن سذاجة وربما عن حسن نية) لسنوات طويلة حتى ألفناها وأصبحنا لا نلتفت إلى أنها بعيدة عن الواقع .

وهنا يتضح أن الحاجة أضحت ماسة والضرورة ملحة للإسراع بعمل جاد لمعالجة آثار هذا الحادث المؤسف الذى لم يعرف التاريخ القديم والمعاصر له مثيلا ، والتعامل مع ما تكشف عنه من معطيات جديدة على أسس موضوعية سليمة . بشرط أن ينطلق عملنا هذه المرة من الاقتناع التام بفداحة الكارثة التى حلت بنا والعزم الصادق والأكيد على وضع كل الترتيبات والضمانات الكفيلة بالحيلولة دون تكرارها مرة أخرى بأى صورة وتحت أى ظرف من الظروف .

وإذا كان الفحص الدقيق والتشخيص السليم يشكلان (كما تقول النظرية الطبية المعروفة) الخطوة الأولى والأساسية لنجاح علاج أى علة من العلل البدنية والنفسية ونقطة نقع على منتصف الطريق المؤدى إلى هذا العلاج . فجدير بنا أن نستفيد هنا بالنهج المنطقى لهذه النظرية الرائعة فى محاولتنا البحث عن حل جذرى أو علاج ناجع للمشكلة التى أرقتنا لشهور طويلة وهزت استقرار المنطقة من الأعماق وألحقت بدولها وشعوبها ما يصعب تصوره من الأضرار .

ومن هذا المنطلق ، فإن الحكمة تقتضينا ألا نجعل الحماس يدفعنا إلى التسرع فى البحث عن الدواء قبل أن نكون قد تعرفنا على الداء ودرسنا أسبابه

دراسة وافية مستفيضة استوعبنا من خلالها كافة الظروف والملابسات التى أدت لوقوعه وهيأت لتمكينه وانتشاره . وعندئذ سوف نجد أن العثور على الدواء يمكن أن يكون سهلا والعلاج ميسورا ولا يحتاج منا إلى كثير عناء .

كما ينبغى أن ننتبه هنا أيضا الى أنه سيكون من المستحيل علينا تحقيق أى تقدم أو الحصول على نتائج إيجابية فى هذا الصدد ما لم يكن لدينا من الشجاعة ما يكفى لممارسة النقد الذاتى الحقيقى فى إطار من المصارحة وتسمية الأشياء بمسمياتها . وذلك حتى لا نحرث فى البحر (على حد قول الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ خالد محمد خالد) ولكيلا نبنى قلاعا من الرمال . وكفانا ما أضعنا من جهد وما أهدرنا من وقت فى مباريات كلامية لا طائل من ورائها ومبارزات لفظية فارغة المضمون لم نجن من ورائها إلا ما وصلنا اليه الآن .

وفى تقديرى ، فإن هناك عددا من الأمثلة التى يمكن أن توضع مع غيرها تحت أنظار المعنيين بدراسة وتحليل المشكلة . وهذه الملاحظات تنقسم إلى قسمين : الأول هو ما يمكن أن نطلق عليه مجموعة الملاحظات أو مواضع الخلل فى تركيبة التضامن العربى . أما الثانى فيضم مجموعة أخرى من الملاحظات التى تكشفت عنها أزمة الخليج الأخيرة وهى :-

أولا : كلنا نعرف بالطبع أن الدول العربية تمتلك من مقومات الوحدة والتضامن ما يفوق كثيرا تلك التى تمتلكها أية مجموعة أخرى من دول العالم . منها على سبيل المثال : وحدة الدين واللغة والتراث (الحضارى والثقافى والاجتماعى) ، ومنها أيضا الامتداد الجغرافى والتاريخى والتجانس الفكرى والبيئى ، علاوة على صلات الرحم ووشائج القربى التى توثقت أواصرها عبر سنوات عديدة ضاربة فى عمق التاريخ .

ومع ذلك نجد أن معظم دول العالم نجحت بشكل أو بآخر فى بناء تكتلات اقتصادية وعسكرية وسياسية بالغة القوة ، فى الوقت الذى لم تستطع جامعتنا أو مجموعتنا العربية تكريس أى شكل من أشكال الوحدة أو حتى مجرد ضبط إيقاع التعاون الحقيقى المثمر والفعال من خلال العمل المشترك الذى بدأ بشكله الرسمى منذ ما يقرب من نصف قرن بالصورة التى تحقق الآمال والتطلعات .

وليس من شك فى أن لهذا الإخفاق أسبابا كثيرة منها ما يعرفه العامة من

أمثالنا ومنها ما لا يعرفه إلا المختصون من ذوى العلاقة . غير أننا قد نستطيع هنا تلمس بعض هذه الأسباب على النحو التالى :-

١ - يشتهر الإنسان العربى فى الأوساط العلمية والعالمية بطبيعته العاطفية الانفعالية التى تجعل صاحبها يجنح غالبا (ربما دون أن يدرى) إلى اتخاذ المواقف المتطرفة ، مثل الثقة الزائدة بغير حدود والتى قد لا يكون لها ما يبررها . وأيضا مثل العناد عند الغضب والاستثارة ، والذى قد يدفع صاحبه أحيانا إلى اتخاذ المواقف الانتحارية . . .

ومع أن هذه قد تبدو صفات شخصية لا علاقة لها بموضوعنا هذا ، بل وكان يجب أن تكون كذلك . إلا أن الغريب فى الأمر والمؤسف أيضا أنها تشكل الأساس فى سلوكيات بعض الأطراف العربية ، ليس فقط على مستوى العلاقات الثنائية والخاصة ، بل وأيضا من خلال العمل المشترك فى الجامعة العربية . ولعلها كانت واحدة من أبرز الأسباب التى هيأت لوقوع كارثة العدوان العراقى على الكويت .

٢ - هناك أيضا ظاهرة الخلط (المتعمد وغير المتعمد) وإساءة استغلال مشاعر الأخوة العربية المنطلقة من رغبة الغالبية من دولها وشعوبها فى الحفاظ على أى شكل من أشكال الوحدة والتضامن ولو فى حدهما الأدنى . إذ نجد أن بعض الأطراف ترى لنفسها مزايا وامتيازات لا تتوافر لغيرها . لذلك فهى لا تتقيد بالمعايير والضوابط المرعية عادة فى مثل هذه التجمعات الدولية ، سواء من حيث وجوب رضوخ الأقلية لرأى الأغلبية ، أو فيما يتعلق باحترام حق الآخرين فى الاختلاف معهم . وانما يرون أن آراءهم وتوجهاتهم ووجوب دعم تصرفاتهم (التى قد لا تكون قائمة على أسس من العدالة والموضوعية ولا تستهدف المصلحة العامة) هى القاعدة التى يتعين أن يلتزم بها الجميع .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان من الممكن احتماله ، وإن على مضض ، عملا بالقول المأثور بأن الخلاف لا يفسد للود قضية . غير إن المؤسف حقا أن هؤلاء الممتازين والمتميزين ، لا يحاولون إقناع من يخالفهم الرأى بالأساليب الأخلاقية المتحضرة ، وانما يلجأون إلى فرض آرائهم على غيرهم (من أشقائهم العرب دون غيرهم) بالتهديد والابتزاز والأساليب الغوغائية الرخيصة . بل وقد يصل بهم الأمر إلى حد الاستخدام الفعلى والمباشر للقوة المسلحة إذا كانت لديهم القدرة على ذلك ، أو تكليف المنظمات

الإرهابية التى يرعونها للقيام بالمهمة نيابة عنهم ، أو الاكتفاء فى أحسن الأحوال ، إذا آنسوا فى أنفسهم عجزا عن استخدام القوة ، بشن حملات التشهير الإعلامية وتوجيه الإتهامات الكاذبة والسباب والمهاترات والتحريض والإسفاف المقزز ، الذى دعا أحد الزعماء العرب للإشارة إلى ذلك علنا وبمرارة فى أكثر من خطاب له فى الآونة الأخيرة .

٣ ـ نظام اتخاذ القرارات فى الجامعة الذى يشترط الإجماع ، يشكل عقبة هائلة فى طريق العمل العربى المشترك ويشل فاعليته تماما ، فلطالما استخدمت هذه القاعدة استخداما سيئا ومغرضا وغير مسئول ، ربما عن عمد فى بعض الحالات وربما تحت مشاعر الغضب والانفعال فى حالات أخرى . ولكن النتيجة فى كل الأحوال هى تعطيل إصدار بعض أهم القرارات وأكثرها حساسية وخطورة .

ثانيا : كشفت أزمة الخليج أيضا عن بعض مواطن الخلل التى وإن لم تكن جديدة تماما ، الا أن الظروف والملابسات التى أحاطت بالأزمة جسدتها ووضعتها تحت المجهر ، مثل :

١ ـ أزمة العقل العربى :

هناك بلا شك أزمة تمثلت فى إخفاق العمل العربى المشترك ، ممثلا فى قصور جامعة الدول العربية عن فرض شخصيتها واحترام مبادئها وأهدافها على أعضائها بالصورة التى سمحت بأن تختلف الرؤ ى بينهم بمثل هذا الشكل المؤسف الذى رأيناه فى أزمة الخليج وحول قضية بديهية مبدئية أخلاقية لم يختلف عليها فى العالم سوى العرب وحدهم . . .

ومن مظاهر هذه الأزمة أيضا ، ما يلاحظ من عجز بعض الأطراف العربية عن فهم حدود العلاقة بين مقتضيات العمل العربى المشترك والالتزام بأهدافه ، وبين الحرية الشخصية والعمل السيادى الاستقلالى لأى دولة أو مجموعة من الدول (مثل دول الخليج) وحقها فى أن تدير شئونها الخاصة وتحدد أطر علاقاتها الدولية على الوجه الذى تراه محققا لمصالحها طالما كان هذا فى إطار المصلحة العامة أو لا يتعارض معها .

كذلك كان السلوك العراقى ممثلا فى إقدامه على مثل هذه المغامرة البالغة الخطورة نتيجة لحسابات خاطئة وعجز تام عن التقدير السليم لموازين القوى

وفهم حقائق العصر . الأمر الذى أغرى القيادة العراقية بالتمادى فى الصلف والغرور والعناد . وهذا واحد من أشكال أزمة العقل العربى .

٢ ـ أزمة الضمير العربى :

إن كلمة الضمير فى حد ذاتها تعبر عن مضمون شائع نتداوله قولا وعملا فى حياتنا اليومية . غير أننى رأيت من المستحسن ، بالنظر لما يلاحظ من أن المفاهيم بدأت تختلف حول مضمونه ، أن نستعرض هنا قبل التطرق لأزمة الضمير العربى ، وباختصار شديد ، التعريف اللغوى لهذا المصطلح حسب ما ورد فى أكثر المعاجم العالمية شهرة وانتشارا .

ففى دائرة المعارف البريطانية على سبيل المثال ، يعتبر الضمير « مصطلح فلسفى يستعمل شعبيا وفنيا فى مدلولاته المختلفة ، كرمز للملكة العقلية التى تساعد الانسان على التمييز بين الحق والباطل » .

أما فى دائرة المعارف الأمريكية فقد ورد مصطلح الضمير على أنه « ملكة فطرية ، أو ملكة مغروسة ربانيا فى الإنسان لتساعد الفرد على إصدار أحكام سليمة فى القضايا المرتبطة بالأخلاق » .

وإذا كان لى شخصيا الحق فى أن أعبر عن المعنى الذى أفهمه من هذا المصطلح ، فإننى أقول « هو إطار الفكر والسلوك الإنسانى الذى رسمت حدوده ورسخت مفاهيمه فى أعماق النفس البشرية منذ سنوات تكوينها الأولى ، مجموعة من القيم المثالية والمعايير الأخلاقية الرفيعة . ويحدث الالتزام بها ذاتيا ودون أى رقابة أو تدخل من الخارج » .

إن المعنى الذى جسده العدوان العراقى على الكويت لا يقتصر فى الواقع على كونه مجرد انعكاس لحالة غباء سياسى أو قصور ذهنى أوصل القيادة العراقية إلى حسابات خاطئة فقط . بل إنه أيضا يجسد أزمة الأخلاق والضمير التى سولت لقيادة شعب عريق ذى حضارة لها مكانتها فى التاريخ العربى والإسلامى ، أن تنحدر إلى هذا الدرك وترتكب مثل هذه الأعمال التى لا يمكن أن يقدم عليها إلا القتلة وقطاع الطرق الذين لا تحركهم سوى أكثر الغرائز انحطاطا .

كذلك فإن الموقف المخزى الذى اتخذته بعض الدول والمنظمات والطوائف العربية والإسلامية (حسب ما تقول أو تعتقد) لمساندة جريمة

استنكرها وأدانها العالم كله ، ومحاولة التستر عليها بأكثر الأساليب خبثا ودهاء . ما هو إلا واحد من الوجوه القبيحة لأزمة الضمير العربى . . .

أما عملية استغلال الدين ، والجرأة على توظيفه لخدمة الأغراض الشخصية والأهداف الباطلة من قبل بعض من يفترض أنهم رجال ، من دعاة الدين ومفسرى أحكامه ، فإن هذا بغير أدنى قدر من المبالغة يمثل قمة المأساة وأبشع أشكال أزمة الضمير على الإطلاق . ذلك لأن ضرر هذا العمل لا يقتصر على تسويغ الجريمة والتهوين من بشاعتها والتقليل من هول الدمار والتخريب والقتل والنهب والتعذيب وهتك الأعراض وانتهاك الحرمات واغتيال حقوق الأبرياء ، بل يمتد هذا الضرر إلى النيل من قدسية ومهابة الدين ويعمل على زعزعة مصداقيته فى قلوب المؤمنين .

ثالثا : وأخيرا فإن هناك بلا شك الكثير والكثير مما يمكن أن يقال إضافة إلى ما تقدم ومما لا يتسع له المجال . غير أننى أود أن أبدى ملاحظتين ، قبل إنهاء الحديث ، أراهما هامتين على النحو التالى :ـ

١ ـ عند التصدى لمعالجة آثار هذه الأزمة ، وهو أمر لا شك فى أنه قائم حاليا ، أرجو أن يؤخذ بعين الاعتبار أن فجوة ثقة هائلة ومحنة شك حادة قد أصابت جدار التضامن العربى . وهو الأمر الذى سيترتب عليه ضرورة الحذر وتحرى الدقة من جانب كل دولة حرصا على توفير أفضل الضمانات الكفيلة بصيانة أمنها الذاتى على أساس أن الخطر يمكن أن يأتيها من حيث مأمنها (فقد علمتنا التجربة ذلك والمؤمن لا يلدغ من حجر مرتين) . ومع أن هذا الهدف يمكن تحقيقه عن طريق الأمن الجماعى بصورة أفضل ، إلا أن الحذر والاحتياط واجب والبعد عن الشعارات والعواطف والمجاملات والإحراج فى مثل هذه الأمور أكثر وجوبا . والحق لا يغضب إلا الساذج أو سىء النية والعياذ بالله .

٢ ـ على الرغم من أن الكثيرين يتصورون أن حشدا أكبر من الجنود وتكديسا أضخم من الأسلحة والمعدات الحديثة والمتطورة يشكل الضمان الأكيد لصيانة الأمن الذى نبحث عنه ويبحث عنه كل إنسان . إلا أننى أرى أن هذا لا يوفر ضمانا على الإطلاق ، لأن من الممكن أن تدخل دول المنطقة فى سباق لا نهاية له فى هذا المضمار ما دامت تقنية السلاح فى تطور مستمر ، أو من الممكن أن تكون كذلك .

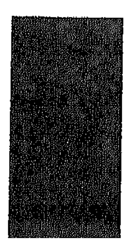
وأعتقد أن الأفضل من ذلك أن يتم تحقيق هذا الهدف عن طريق «الأمن السياسى»، بمعنى أن تتضافر الجهود (إذا حسنت النوايا) لحل مشاكل المنطقة المزمنة ، ثم يتم الاتفاق بعد ذلك (أو حتى يفرض فرضا) على نزع أسلحة الدمار الشامل من المنطقة ، إذ ليس من المعقول أن تفعل هذا الدول العظمى المنتجة للسلاح أصلا ولا تفعله الدول المستوردة له □

جريدة العصر

١٥

نحو مفهوم أفضل للعلاقات العربية / العربية

١



يحلو للبعض أحيانا أن يصف العدوان العراقى على الكويت بأنه شبيه بسحابة صيف عبرت سماء المنطقة العربية فجأة وعن طريق الخطأ فى ليلة مظلمة من ليالى أغسطس الحارة ، ثم مضت فى سبيلها أو بددتها أشعة شمس الخليج الحارقة دون أن تخلف وراءها ظلا أو تترك أثرا للنماء .

أما البعض الآخر فيرى العدوان العراقى على أنه كان كابوسا ثقيلا من ذلك النوع الذى يغشى المرء عندما يخلد إلى النوم بمعدة ملأى بالطعام ، ولكنه على أى حال لا يخرج عن كونه حلما مزعجا لا يستحق أن نتوقف أمامه طويلا (دهشة أو تأملا) ، بل علينا أن نتجاهله ونتناساه ونسارع باستئناف حياتنا العادية من جديد كما استأنفناها دائما من قبل بصورة طبيعية وبنفس الأسلوب الذى ألفناه منذ مئات السنين .

والواقع أن مثل هذه الأوصاف والتشبيهات للعدوان العراقى على الكويت وآثاره (والتى ربما كانت صادرة عن طيبة وحسن نية ، أو عن خبث ودهاء يخفى الرغبة فى صرف الانتباه عن شىء ما ، أو عن حكمة وبعد نظر ليس فى مقدور إنسان عادى مثلى إدراك كنههما) ، تبدو لى غير منطقية .

إذ يلاحظ أنها تقوم على التبسيط الشديد للأمور بما يناقض الواقع ويصطدم مع المنطق . بل وقد يراه البعض إهانة للعقل عامة واستخفافا بالذكاء العربى خاصة .

ذلك أن العدوان العراقى (فى شكله ومضمونه كما فى دوافعه ونتائجه التى كنا جميعا من شهودها ، وربما أيضا من ضحاياها ، ومازالت أصداؤها ترن فى آذاننا وصورها المؤلمة ماثلة أمام أعيننا حية فى أذهاننا) ، كان مأساة مروعة بكل المقاييس وحدثا بشعا بحجم الكارثة ترك آثارا نفسية ومادية تتضاءل بجانبها آثار الزلازل والبراكين التى قد تُحدث أحيانا تغييرا شاملا وجذريا فى البيئة المحيطة بها وأحيانا أخرى تزيل كل صور الحياة من على الأرض .

واذا كان هناك من قد يجد لديه من الأسباب التى تدعوه لمجادلتى حول مدى دقة وموضوعية ما أستخدمه من ألفاظ لوصف العدوان العراقى ، فلا أظن أن هناك أيضا من يستطيع إنكار أن العدوان أفرز واقعا فى المنطقة يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى عرفته من قبل . ولعله يكفينا هنا أن نذكر بعض ملامح ومعطيات الواقع الجديد هذا والمتمثلة فى انهيار الثقة والمصداقية التى قامت عليهما العلاقات الأخوية بين العرب لسنوات طويلة ، ثم هناك أيضا التواجد الدولى فى المنطقة الذى حتمته ظروف العدوان وصلف المعتدى وعناده وشراسته فى ظل اختلال لموازين القوى العسكرية فى المنطقة ، وأخيرا وليس آخرا تلك الخسائر المادية والبشرية الجسيمة والخراب الاقتصادى الذى لحق بدول الخليج وفى مقدمتها العراق نفسه . . .

ومن هنا يمكن فهم الأسباب التى تدعونى للقول بأنه ليس من المعقول ولا من المستساغ أن تبسط الأمور على هذا النحو الساذج ، سواء تحت ذرائع النوايا الطيبة وتسامح الأشقاء ، أو دعاوى الحكمة وبعد النظر التى تطالب بنسيان كل ما حدث واعتباره كأن لم يكن وتطبيق شعارات فتح الصفحات الجديدة وعدم النظر إلى الوراء وعفا الله عما سلف . . . إلخ .

غير أن لى ملاحظة لابد من إيضاحها هنا ، وهى أن واحدا لا يستطيع (عن قناعة وليس عن إكراه أو اضطرار) أن يعترض على أهمية العمل العربى المشترك والحاجة الماسة إلى جمع الشمل من جديد . باعتبار أن هذا الطريق هو أملنا الوحيد وسبيلنا الذى لابديل عنه لحفظ مصالحنا وصيانة حقوقنا وحرياتنا

واستقلالنا فى عالم أصبح يتجه نحو التكتلات ولا يعبأ بالكيانات الصغيرة التى لا تمتلك القوة بأشكالها الثلاثة ، العسكرية والاقتصادية والسياسية .

أما الخلاف فينحصر فى شكل هذا العمل المشترك فيما بعد العدوان العراقى الذى أصبح يمثل منعطفا حادا وخطيرا فى التاريخ العربى الحديث ، **وكذا الأسس التى يجب أن يقوم عليها هذا العمل فى ظل معطيات الواقع الجديد ، والتى لابد (فى تقديرى) من أن تكون مختلفة بصورة عن تلك التى كانت عليها قبل العدوان .**

غير أننا لكى نتعرف على ملامح هذا التغيير ، يتعين أن نحدد اولا ماهية الظروف والأوضاع التى أدت إلى نشوء الحاجة إليه الآن . **أو بعبارة أكثر وضوحا الأوضاع التى أفسدت العلاقات العربية العربية وحالت دون تحقيق الطموحات المأمولة طوال الفترة الماضية من خلال وفى إطار الجامعة العربية . بل وقد يكون فى مجرد التعرف على هذه الأوضاع ما يغنينا عن البحث عن ملامح التغيير المطلوب .** ولكن هذا يقودنا بالضرورة إلى استعراض تاريخى مقتضب للجامعة العربية التى كانت ومازالت تمثل الإطار المتاح والوحيد للعمل العربى المشترك .

فلقد كانت الفكرة الأساسية المستهدفة من إنشاء الجامعة العربية أن تكون تجسيدا لآمالهم فى تشكيل إطار يجمع شملهم ووسيلة تنظم صفوفهم وكيانا يرعى مصالحهم ويحفظ حقوقهم ويحقق أمنهم فى مواجهة الهجمة الصهيونية من جانب ويفى بمطالب التحرر والاستقلال من جانب آخر . وقامت الجامعة العربية فعلا بصورة رسمية ، بإعلان ما يعرف ببروتكول الإسكندرية (مكان الاجتماع التأسيسى الأول) فى عام ١٩٤٥ م ، بعضوية كل من : مصر والعراق وشرق الأردن وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن .

ولأن خمسا من الدول المذكورة المؤسسة للجامعة العربية ، كانت فى ذلك الوقت إما خاضعة تماما أو خارجة لتوها باستقلال غير كامل من تحت نير الاستعمار ، البريطانى بالنسبة لكل من مصر والعراق والأردن ، أو الفرنسى بالنسبة لكل من سوريا ولبنان فقد جاء ميثاق الجامعة مجسدا لحالة هذه الدول ومترجما لما لديها من حساسية مفرطة تجاه الاستعمار وحرصها على تأكيد سيادتها واستقلالها .

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكواحدة من عوامل الجذب والاستقطاب الدولى ، فقد نشطت حركة تصدير الأيديولوجيات الغربية إلى العالم العربى ، وبخاصة تلك التى كانت تأتى من الاتحاد السوفيتى أو بدعم مباشر وغير مباشر منه .

ولأن تلك الأيديولوجيات كانت تقترن عادة بالشعارات البراقة التى تحمل الآمال الوردية فى حياة رغدة وسعيدة من خلال الكفاية والعدل ، فقد كانت هذه الشعارات تحدث أحيانا تأثيرها السحرى المخدر بدغدغة مشاعر الشعوب الفقيرة أو تلك التى كانت تناضل فى سبيل الاستقلال أو حديثة العهد به والتى أنهكها الاحتلال واستنزفت قواها ومواردها معارك التحرير .

ومع أن تسويق هذه الأيديولوجيات فى حقبة الخمسينيات صادف نجاحا ملموسا انعكس فى ظهور قيادات وأنظمة (غير تقليدية) عرفت بالثورية ، بسبب ماكانت ترفعه من شعارات معادية للاستعمار والتعهد بالنضال ضده فى كل أشكاله وفى أى مكان من العالم . وهو الأمر الذى أوجد خليطا غير متجانس من الأنظمة المكونة للجامعة العربية ، إلا أن العلاقات بين هذه الأنظمة ظلت مستقرة وهادئة نسبيا خلال تلك الحقبة ، وهو ما ترجمه التلاحم الفورى مع مصر عندما تعرضت للعدوان الثلاثى عام ٥٦ .

وفى حقبة الستينيات نشطت الأيديولوجية المستوردة بدرجة كبيرة وحققت أيضا مزيدا من المكاسب بدأ من خلالها الصراع بين محورى روسيا وأمريكا ينعكس بدوره على دول المنطقة ، وخاصة تلك التى عجزت عن تجسيد شعاراتها أو تحقيق طموحاتها وآمال شعوبها فى الرفاهية والتنمية والعدالة الاجتماعية .

وقد أدى ذلك إلى تكريس الاستقطاب والتشرذم وتباعد السبل والأهداف بين دول المجموعة العربية . بل وأدى أيضا إلى قيام بعضها بمناوأة البعض الآخر فى محاولات استفزازية ملحة لفرض آرائها وأيديولوجياتها وتعميم ارتباطاتها الدولية الخاصة . بل ووصل الأمر أيضا إلى حد أن بعضها خاض معارك ومغامرات عسكرية ، اما بإيعاز من إحدى القوى العظمى أو لحسابها ، وإما بهدف إلهاء الشعوب عن أحوالها الداخلية المتردية .

ففى عام ١٩٥٨ على سبيل المثال قام الرئيس كميل شمعون باستدعاء

المارينز (القوات البحرية الأمريكية) لحماية لبنان من الأطماع والتطلعات القومية العربية (حسب ما كان يقال فى ذلك الوقت) ، كما استدعى الملك حسين القوات البريطانية لحمايته من موجة الوحدة العربية التى حاصرت الأردن من الشمال والجنوب ، واستنجدت تونس بالقوات الفرنسية كما اضطرت الكويت للاستعانة بالقوات البريطانية (إلى جانب بعض القوات العربية) لمساندتها فى الوقوف فى وجه أطماع القيادة العراقية التوسعية (عبد الكريم قاسم ١٩٦١) عندما كانت تعد العدة لابتلاع الكويت فى ذلك الوقت **ولقد ظلت العلاقات العربية العربية تعانى الانشقاق والخصام طوال تاريخها حتى لقد أصبح مجرد إنهاء اجتماعات الجامعة العربية بمثل ما بدأت به وبدون زيادة تعميق الخلاف فيما بينها ، هدفا وإنجازا يتمنى الجميع تحقيقه .**

وبعد أن شهدت حقبة السبعينيات فى بداياتها انتعاشا كبيرا للآمال فى إحياء وتنشيط العمل العربى المشترك ، والذى تجسد بصورة رائعة من خلال ملحمة التضامن مع مصر وسوريا فى حرب رمضان (اكتوبر ١٩٧٣) . إلا أن العرس العربى لم يستمر طويلا كما هى العادة . إذ سرعان ما دب الخلاف حول سلامة قرار الدول المتحاربة قبول أو عدم قبول وقف إطلاق النار وترتيباته ، وهو الخلاف الذى ظل يتصاعد ويزداد عمقا واتساعا حتى انتهى بتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد وأصبح الخلاف قطيعة انقسمت على إثرها الدول العربية بين مؤيد لموقف مصر ومعارض ، وتشكلت جبهة الصمود والتصدى التى ما لبثت أن واجهت بدورها عوامل التفكك بعد دخول العراق حربه الطويلة مع إيران تم باجتياح إسرائيل لجنوب لبنان . كما انقسمت الدول العربية مرة أخرى حول تأييد طرفى الحرب العراقية الإيرانية .

وفى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات استمر الوضع السياسى على ما هو عليه . ولكن يسجل لبعض القوى العربية المؤثرة سعيها الدائم لجمع الشمل وتخفيف حدة الخلافات وإزالة أسباب الخصومات فى العالم العربى وإنهاء أشكال الصراعات التى كانت تجسد عوامل الفرقة بين العديد من الأطراف العربية . ويمكن أن نخص بالذكر هنا خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، الذى حظيت الساحة العربية بأكبر قدر من جهوده ومساعيه الخيرة ، مثل مساعيه الموفقة لإنهاء الصراع الجزائرى المغربى حول قضية الصحراء ، وإنهاء الصراع اللبنانى اللبنانى من خلال مؤتمر الطائف ،

وتسوية النزاع الذى نشأ بين قطر والبحرين وآخر بين سوريا والأردن ، وغيرها كثير .

ولقد نجحت بعض تلك الجهود فى إعطاء النصف الثانى من حقبة الثمانينيات نوعا من الهدوء والاستقرار فى العلاقات العربية العربية ، كما شهدت هذه الحقبة مولد عدد من نماذج الوحدة والتعاون العربى مثل : مجلس التعاون الخليجى ، ومجلس التعاون العربى ، والاتحاد المغاربى لدول المغرب العربى ، وشهدت كذلك عودة مصر إلى الجامعة العربية .

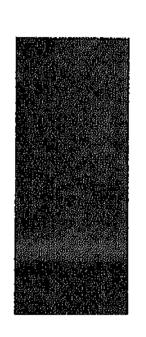
ونظرا لأن المجال لا يمكن أن يتسع لكل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع ، مهما حاولت الاختصار والإيجاز . لذا فإننى سوف أتوقف عند هذا الحد ، على وعد بأن أستكمل الحديث لإيضاح الرسالة التى أود إيصالها للقارىء فى أقرب فرصة ممكنة بحول الله □



١٦

٢

نحو مفهوم أفضل للعلاقات العربية/العربية



في الجزء السابق من هذا الحديث تعرضت لعدد من القضايا الهامة التى فجرها العدوان العراقى على الكويت فى الثانى من أغسطس الماضى ١٩٩٠ م ، وألمحت خلال ذلك العرض الموجز إلى بعض آثار العدوان وانعكاساته على مجمل الأوضاع فى المنطقة وعلى أكثر من صعيد عربى وإسلامى ودولى وإقليمى .

ولكى نتصور هول الكارثة التى أطلقنا عليها حينا « أزمة الخليج الثانية » وحينا آخر « العدوان العراقى على الكويت » ، يكفى أن نتذكر هنا بأنه على الرغم من نجاح قوى التحالف الدولى فى تحجيم العدوان وحصره مكانا فى رقعة صغيرة محدودة من الأرض لا تتجاوز مساحة العراق والكويت وحدهما ، وقصره زمانا على سبعة أشهر بما فيها معركة تحرير الكويت نفسها والتى لم تستغرق أكثر من ستة أسابيع انتهت بدحر المعتدى فى السابع والعشرين من فبراير ١٩٩١ م . الا أن الدمار المادى والمعنوى الذى خلفه العدوان (باستثناء الخسائر البشرية التى عملت قوى التحالف على تقليصها لأدنى حد ممكن) لا يقل بحال عما خلفته أى من الحربين العالميتين ، الأولى أو الثانية .

ومع أن الآثار السلبية للعدوان على الساحة العربية بالذات كانت وخيمة جداً ومتعددة الجوانب . الا أننى أفضل التركيز هنا على ثلاثة منها فقط لسببين : الأول ، لأنها تجسد المعنى المراد إيضاحه بصورة أفضل من غيرها . والثانى ، لكى يساعدنا الاختصار على سرعة التوصل إلى رؤ ية واضحة لما يجب عمله للحد من مضاعفات العدوان وإزالة آثاره إذا كان ذلك ممكنا . وهذه الآثار هى :

١ ـ انهيار عنصر الثقة والمصداقية الذى يعد من أهم ركائز العلاقات الدولية عامة والعربية خاصة . لا سيما بعد أن تعرت بفعل العدوان وأذياله سوءات كثيرة كانت مستترة خلف شعارات الأخوة والتضامن ووحدة المصير . . إلخ .

٢ ـ التواجد الدولى الكثيف بكل أشكاله فى المنطقة .

٣ ـ الخسائر المادية الفادحة والدمار الاقتصادى الذى أصاب معظم دول المنطقة ، سوف يتطلب وقتا طويلا لمعالجة آثاره الوخيمة التى لا تقتصر على الدول التى أصيبت بها وحدها وإنما سيمتد ضررها حتما إلى دول كانت تستفيد من مساعداتها الإنسانية .

ونتيجة لهذه المتغيرات الدرامية وغيرها ، أصبح لدينا واقع جديد محدد الملامح لا يستطيع أحد أيا كان ، سواء بحكم موقعه كمسئول أو باحث أو مؤرخ ، أن يتصدى لأوضاع المنطقة بالرصد والتحليل دون أن يأخذ فى بؤرة الاعتبار هذا الواقع الجديد ويجعله حجر الأساس فى معالجته . ولكن الشىء الذى لا يحتمل الخلاف هنا هو أن عملية إعادة بناء العلاقات العربية / العربية من جديد أو حتى مجرد ترميم هذه العلاقات ، أصبحت أمرا ـ وان يكن غير مستحيل تماما ـ الا أنه بالغ الصعوبة (على الأقل فى الوقت الحاضر ، وإلى أن تندمل الجراح العميقة التى خلفها العدوان) .

وعلى الرغم من ذلك ، فإننى ما زلت عند قناعتى بأن التضامن العربى ليس ترفا نستطيع أن نقبله أو نرفضه لتقلب أحوالنا المزاجية . بل إنه خيار وحيد وضرورة تفرضها ظروف ومقتضيات المصلحة القومية والوطنية على حد سواء ، فى عالم ينحوبشدة نحو التكتل ويركض بسرعة فى اتجاه تشكيل التجمعات السياسية والاقتصادية والعسكرية . وبصورة تؤكد أنه لن يكون

هناك متسع فى المستقبل القريب للكيانات الصغيرة أو اعتبار للأداء الدولى المنفرد ، مهما كانت قوة أو براعة صاحبه .

غير أن هذا لا يعنى فى نفس الوقت أن نسارع بالانضمام إلى مواكب المزايدين على الشعارات المملة والبلهاء ، مثل « طى صفحات الماضى » و « فتح صفحات جديدة » و « عفا الله عما سلف » . . إلخ . بل علينا أن نكون أكثر جدية وأكثر وعيا وأكثر عقلانية عما كنا من قبل . وألا يساورنا الشك فى أنه لن يكون بمقدورنا أن نعيد بناء العلاقات العربية/العربية بصورة عملية فعالة ، مالم نحرص على إقامة هذا البناء على أسس خالية تماما من سلبيات الماضى تناسب المرحلة وتنسجم مع حقائق الواقع الدولى المعاصر . **وعلى أن يكون فى مقدمة هذه الأسس موضوعية المعالجة والمصارحة التامة والنقد الذاتى .**

وأنا هنا لاأتحدث فقط عن ميثاق الجامعة العربية الذى صيغ (كما سبق وأن أشرت) تحت تأثير ظروف واعتبارات معينة وفى ظل أوضاع دولية وإقليمية لم يعد لها وجود فى وقتنا الحاضر . بل أقصد ما يعنيه مفهوم الأخوة والتضامن عند عدد من الشعوب والحكومات العربية . فالبعض على سبيل المثال لا يعرف ، **بل وربما لا يروقه أن يعرف ، أن هناك خطوطا واضحة وفواصل محددة بين حقوق الأخوة المكتسبة فى إطار العمل العربى المشترك ، وبين الضوابط المفترض مراعاتها واحترامها فى إطار العلاقات القائمة بين الدول العربية ، بحسابها دولا مستقلة ذات سيادة ، لها كامل الحق فى إدارة شئونها والتصرف فى مقدراتها واختيار أنظمتها السياسية والاقتصادية وتحديد ارتباطاتها الخارجية بملء حريتها وبما تراه محققاً لمصالحها من كافة الجوانب القانونية والإنسانية والأخلاقية والحضارية .**

فنحن عندما ننظر بإمعان إلى العدوان العراقى فى ضوء ظروفه وملابساته وما تكشف عنه من خبايا أو أسفر عنه من نتائج ، **فسوف نجد أنه لم يكن سببا بحد ذاته بقدر ما كان نتيجة لتراكمات ورواسب أفرزتها علاقات غير سليمة قامت أصلا على أسس واهية اختلطت فيها الدوافع الموضوعية للتجمعات والتنظيمات الدولية بالعواطف ومؤثرات الظروف الآنية ومشاعر الخصوصية العربية .**

ولو طرحنا سؤالا هنا حول : (من أين واتت القيادة العراقية هذه

الجرأة التى سولت لها الإقدام على غزو دولة مستقلة تتمتع بعضوية جميع الهيئات والمنظمات الدولية ، وبكل هذه الشراسة والتبجح ، فى عالم اختفت منه تماما ، ومنذ زمن بعيد كل أشكال الفوضى والقرصنة ؟ . . ذلك الغزو الذى استنكره الرأى العام العالمى بكل مستوياته الشعبية والرسمية (فيما عدا بعض الدول العربية) . . باعتباره عملا همجيا بربريا غير أخلاقى وأسلوبا غير مقبول لتحقيق الأطماع المالية أو الجغرافية أو حسم المشاكل الحدودية أو حل الخلافات السياسية والاقتصادية .

هذا مع ضرورة الأخذ فى الاعتبار أن العراق ليس من تلك الدول المعروفة بالاعتياد على تسوية خلافاتها عن طريق القوة وبمثل هذا الأسلوب الفظ العنيف ، حتى مع أولئك الذين تحرشوا به وأهانوه أمام العالم كله عندما دمروا له مفاعله النووى بدون أن يبدر منه أى عمل استفزازى مسبق ، بل ولا حتى رد فعل لاحق ولو على مستوى ما يفعله الصبية الفلسطينيون فى مواجهة جنود اسرائيل .

وحتى لو وجدنا من يقدم الإجابة عن السؤال السابق ، فهل نجد أيضا من يفسر لنا أسباب البطش والعنف الذى مارسته القوات العراقية فى الكويت . وهذا القدر المبالغ فيه من القسوة والوحشية ضد شعب يقل تعداده كاملا (أى بما فى ذلك رجاله ونساؤه وشيوخه وأطفاله وأصحاؤه ومرضاه) عن تعداد القوات العراقية التى جاءت لاحتلاله والتنكيل به ، وأيضا عن أسباب ذلك الانحطاط الدنىء الذى هبط بشرف الجندية العراقية إلى مستوى جعلها موضع ازدراء الرأى العام العالمى واحتقاره ؟ .

إننى فى الواقع أطرح تساؤلاتى هذه وأنا مدرك سلفا استحالة العثور على إجابتها إذا ما حاولنا الحصول على مثل هذه الإجابة عن طريق القياس والتحليل المنطقى . **أما إذا بحثنا عنها فى إطار مفهوم العراق لمعنى الأخوة والتضامن العربى ، فسوف تصبح الإجابة سهلة وميسورة . ذلك أن كل قادة العراق ، بدون استثناء بدءا من عبد الكريم قاسم وانتهاء بصدام حسين ، تسلطت على رءوسهم رغبة مجنونة بالاستيلاء على الكويت منذ ظهور البترول فى أراضيها . إلى جانب تطلعات عراقية قديمة للسيطرة على منافذها البحرية على الخليج . لذلك كان التضامن العربى فى نظر أولئك الحكام هو المفتاح السحرى لتحقيق كل أهدافهم والطريق الآمن للاقتراب من هدفهم دون**

إثارة الانتباه . آخذين بعين الاعتبار أن العالم لن يهتم كثيرا بمن يتعامل معهم من (أفراد الأسرة) ما دام سيضمن الحصول على ما يحتاجه ، وهو البترول .

كما يمكن فهم هذا المعنى بصورة أفضل وأكثر وضوحاً ، إذا علمنا أنه لم يكن هناك من بين حكام الأمة العربية كلها (خلال السنوات السابقة مباشرة على العدوان) من تحدث بإسهاب وحرارة وحماس عن واجبات الأخوة العربية وموجبات التضامن العربى والتزامات حسن الجوار وضرورات توافر الثقة والطمأنينة والإحساس بالأمن فى كنف الأمة العربية والأسرة العربية الواحدة ، بأكثر من الرئيس العراقى نفسه ..

ومع أن حديثى هذا لم يكن مقصودا به أصلا الاستفاضة فى عرض وتحليل العدوان العراقى بحد ذاته ، وإنما كان الهدف هو إبراز بعض نتائج ذلك العدوان وانعكاساته على حاضر ومستقبل العالم العربى والعلاقات العربية/العربية التى كانت فى تصورى من أبرز ضحاياه . إلا أن القارىء لابد وأن يكون قد لاحظ من خلال تطبيقات العراق لشعارات القومية العربية وفهمه للتضامن العربى ، علاقة التشابه القوية والواضحة بين هذا النموذج العراقى ونماذج أخرى فى عالمنا العربى الذى يزخر بأكثر من عراق واحد وأيضا أكثر من كويت .

ويرجع هذا فى تقديرى إلى سوء فهم البعض لطبيعة وأهداف العمل العربى المشترك . ومع ذلك فإننى لا أعتزم تقديم حصر شامل للسلبيات والمآخذ التى أدت إلى تجميد نشاط الجامعة العربية والحد من فاعليتها لما يقرب من نصف قرن حتى الآن . أولا لأن هذا فوق طاقتى ، وثانيا لأنه من شأن أصحاب الاختصاص الذين لست واحداً منهم . غير أننى أكتفى فقط بالتنبيه ، مع التأكيد بأن هناك خللا خطيرا يتعين معالجته بصورة جذرية قبل النظر فى إعادة العلاقات العربية . وإذا جاز لى أن أسجل هنا (بعض) ملاحظاتى الخاصة وما أراه من مواضع الخلل وأعراضه الملموسة ، فهى على النحو التالى :ـ

أولا : لم ألمس طوال حياتى وجود نظرة موحدة أو مفهوم واضح مطلق لفكرة القومية العربية والتضامن العربى . والشائع أن هذه الفكرة استقرت فى

أذهان البعض على أسس عاطفية وجدانية أكثر منها عقلانية منطقية . وقد يكون من الدلائل المؤيدة لهذه النظرية ، ما رأيناه من أن الرئيس العراقى (الذى تسبب بعدوانه فى كل ما حل بالأمة العربية من مصائب) لم يتورع عن رفع شعارات القومية العربية والأخوة والتضامن العربى ، تبريرا لاجتياحه وابتلاعه لبلد عربى . بل والأكثر من ذلك أنه وجد لدعواه صدى واستجابة من بعض (الأشقاء) الذين خرجت جماهيرهم تبارك عمله وتهتف قائلة « إلى الأمام يا صدام . إلى الأمام يا صدام » .

وبالمناسبة ، فإن فكرة القومية العربية هذه ليست فكرة عربية الأصل وليست من تراثنا السياسى والحضارى فى شىء ، وإنما هى فكرة مستوردة من التاريخ السياسى الأوروبى واستخدمت لإثارة الحماس وإلهاب المشاعر . ومع أن أوروبا نفسها تخلت عن هذه الفكرة منذ وقت طويل ، فقد ظل أكثرنا متشبثا بها على الرغم من أن لدينا فى هويتنا العربية والإسلامية ما يغنينا عنها .

ثانيا : كما سبق وأن ذكرت وذكر العديد من الكتاب والمفكرين ، من أن ميثاق الجامعة العربية كان قيداً يكبل العمل العربى المشترك ويمنعها من الحركة بصورة إيجابية مثمرة نحو تحقيق الآمال والتطلعات التى أنشئت من أجلها . ولست بحاجة هنا بالطبع لإعادة التذكير بأن هذا الميثاق وضع فى ظروف معينة لم يعد لها وجود فى وقتنا الحاضر .

ثالثا : من الشعارات التى رفعها الرئيس العراقى ، تبريرا لجريمة اغتصابه للكويت والتى نالت تأييد ومباركة العديد من الشعوب العربية ، **خاصة تلك التى كانت تنعم بالقسط الأوفى من مساعدات دول الخليج وتتمتع بأكبر قدر من رعايتها . ذلك الذى ادعى فيه أن من أهداف غزوه للكويت « إعادة توزيع الثروة (العربية) توزيعا عادلا » . وهذا بالطبع إضافة لتحرير فلسطين .**

ومبعث المرارة والألم هنا أن بعض الدول العربية ، بما فى ذلك مثقفوها ، ينظرون فعلا إلى هذا الموضوع على أساس أن لدولهم حقوقا فى عوائد النفط لدول الخليج . باعتبار أن هذه العوائد تمثل « الثروة العربية » التى استأثرت بها دول الخليج ولم توزعها على مستحقيها توزيعا عادلا . . . **ولا أدرى أين كان الرئيس العراقى والمهللون له يصنفون العراق بين الفريقين ؟** ، وإن كنت

على ثقة تامة بأن الرئيس العراقى كان يدرك أنه برفعه لهذا الشعار سوف يلهب حماس وخيال الكثيرين من « أصحاب الحقوق المغتصبة » .

ولعله كان من الأجدر بهؤلاء ، قبل أن يصدقوا هذه الشعارات الخادعة ويتطلعوا إلى خارج حدودهم ، أن يسألوا أنفسهم أولا عما قدمته لهم حكوماتهم من خلالها غير الفقر والحرمان وزرع الحقد والكراهية تجاه بعضهم البعض وتجاه إخوانهم من الشعوب الأخرى . بل ولعله كان كافيا أن يسألوا أنفسهم عما فعله (المصلح ، الذى خاض الحرب من أجلهم ضد الشرعية الدولية) ، وهل حقق العدالة بين مواطنى أنفسهم وهم الأولى برعايته واهتمامه ، خاصة وأنهم يملكون من خلال ما تمده بلادهم من ثروات نفطية هائلة بالإضافة إلى العديد من الموارد الطبيعية كالمياه العذبة والأراضى الزراعية والقوى البشرية وغيرها ما لاتحلم به كل دول الخليج مجتمعة ؟ . . .

أما فيما يتعلق بالدور الذى لعبته دول الخليج فى هذا المجال ، وبالذات المملكة العربية السعودية . فسوف أكتفى بالاستشهاد هنا بإحدى فقرات الخطاب الذى وجهه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وسمو ولى العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز خلال استقبالهما لضيوف المملكة من حجاج بيت الله الحرام لهذا العام ١٤١١ هـ والتى جاء فيها :

« وهناك من ينادون بتوزيع الثروات ومساواة الغنى بالفقير ويومئون إلى المملكة تصريحا وتلميحا بالتقصير فى هذا المجال . . ولئن كان المقصود بما ينادون به ما جاءت به تعاليم الشريعة الإسلامية ، فالمملكة قد أوفت هذا الجانب بأضعاف ما ورد فى النصوص الإسلامية . وإن كان القصد هو التكافل والتعاضد وإسعاد المحروم وإغاثة الملهوف ، فالمملكة أوفت أيضا بهذا الجانب على أكمل وجه » .

« وليتهم يفعلون ما فعلته المملكة فى مواطن البذل والعطاء منذ أن أفاء الله عليها من نعمه . فلقد أنفقت المملكة العربية السعودية فى مختلف مجالات الخير من دخلها آلاف المليارات ووقفت إلى جانب العديد من الدول النامية والدول الشقيقة مواقف الأخوة المخلصة دون مَنّ أو أذى . وشاركت الكثيرين فى الضراء سراً وعلانية . وبادرت إلى تخفيف آلام المنكوبين والمصابين من جراء النوازل فى مختلف الأقطار انطلاقا من قناعتها الذاتية بأداء الواجب الذى تمليه روابط الأخوة الإسلامية وامتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . .

رابعا : أما الملاحظة التى أنهى بها هذا الحديث ، فهى أسلوب التعامل بين الدول العربية . حيث يلاحظ أن هذا الأسلوب يتميز بخصوصية غريبة تضيع خلالها الحدود والفواصل بين السلوكيات القبلية الفجة وضوابط العلاقات الدولية المتحضرة . إذ نجد أن تصرفات بعض الأنظمة تجاه بعضها الآخر تتسم بقدر كبير من الحدة والعصبية والانفعال السريع وردود الأفعال المتشنجة .

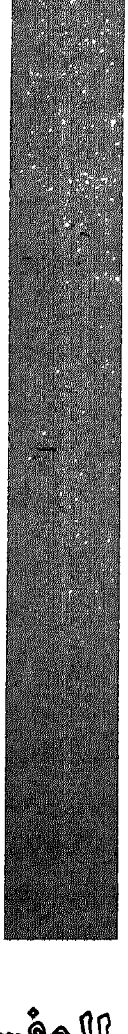
كذلك هناك الذين يحملون اختلافات الآخرين معهم فى الرأى أو استقلالهم فى القرار فوق ما تحتمل . إذ سرعان ما يتخذون المواقف العدائية والعدوانية فى صورة حملات إعلامية ضارية أو إهاربية قد تصل فى بعض الأحيان إلى حد التآمر على حياة الزعماء أنفسهم . وهذا هو ما حدث بالضبط مع سمو أمير الكويت وحده مرتين ، إحداهما قبل عدة سنوات والثانية خلال العدوان العراقى الأخير ، حيث تبين أن حياته شخصيا وحياة كل أفراد أسرته كانت الهدف الأول فى المراحل المبكرة من العدوان .

وأنا هنا مقر بعجزى الفعلى عن معرفة أسباب هذه الظاهرة التى ينفرد بها العالم العربى وعدم استطاعتى سبر أغوارها التاريخية التى قد تكون من اختصاص علماء النفس أو علماء الاجتماع أو حتى علماء أصل الأنواع . غير أن الأمر الذى لا جدال فيه . هو أنها ظاهرة بالغة الخطورة ولا يمكن إقامة علاقات جادة ومثمرة دون استئصالها استئصالا جذريا ، خاصة إذا علمنا أنها ظاهرة عربية خالصة ولا تستخدم إلا فى محيط الأسرة العربية وبين الأشقاء فقط دون غيرهم من عباد الله .

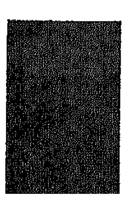
وفى خاتمة حديثى ، لا أجد تعبيرا يلخص مضمون كل ما جاء به ويجسد المعنى الذى أردت أيصاله إلى القارىء ، خيراً مما ورد فى سياق إجابة لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز عن سؤال لمجلة الحوادث خلال لقاء صحفى أجرته المجلة معه مؤخرا . وكان السؤال هو : هل تأملون فى عودة الصفاء إلى صفوف الأمة العربية فى إطار الجامعة العربية ؟ . وكانت الاجابة على الوجه التالى : « أتمنى ذلك حتما ، ولكن على أسس وقواعد صادقة وجادة . ويجب أن يكون دعاة هذا الشعار من المخلصين الصادقين فيما يقولون ، وأن يكون التصافى نابعا من القلوب لا من أطراف الشفاه . ويجب أن يكون هناك جدية تقضى بأن تدين الأكثرية بقوة من يسىء إلى الآخرين وتردعه ، وإلا فلامعنى لبذل أى جهد فى هذا الاتجاه » □



١٧



المفسدون فى الأرض ومتى كان سلاحهم هذا درعا للعرب



مثل الكثيرين ممن تستهويهم متابعة حركة الأحداث على الساحة الدولية بصفة عامة ويولون اهتماما خاصا لما قد يقع من هذه الأحداث فى منطقتنا العربية والمناطق الملاصقة لها ، كنت قد ظننت أن العدوان العراقى الآثم على الكويت ، والذى وقع فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠ م قد انتهى تماما بانتهاء عملية طرد المعتدى وتسليم الكويت لأصحابها الشرعيين (فبراير/مارس ١٩٩١) .

كما كنت قد ظننت أيضا أنه لم يبق من ذلك الحادث المفجع سوى ذكرياته المؤلمة ووصمة العار التى سيظل تاريخنا العربى والإسلامى يعانى خجلا من آثارها السلبية لوقت طويل ، إلى جانب ما خلفه من دمار سوف يتطلب من أجيالنا الحالية أن تنفق الكثير من الجهد المستمر بالصبر والعزم لسنوات طويلة قادمة قبل أن تتمكن من محو آثاره ، ومن الأجيال القادمة أن تستوعب الدرس وتستنبط العبر التى انطوى عليها لكى تتخذ من الاحتياطات ما هو كفيل بالحيلولة دون تعرضها لمثل هذه الكارثة مستقبلا .

غير أن ما جرت به الأحداث وتناقلته الأنباء مؤخرا ، أثبت أن ظنى هذا كان خاطئا وأننى كنت قد بالغت فى التفاؤل بأكثر مما ينبغى ، ذلك أن لجان التفتيش الدولية التى أوفدتها الأمانة العامة للأمم المتحدة ومازالت توفدها تباعا حتى الآن لتنفيذ قرارات مجلس الأمن القاضية بتجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل (النووية والكيماوية والجرثومية) ، قد كشفت عن عدة حقائق ذات مغزى بالغ الخطورة أهمها على وجه التحديد **اثنتان** هما :

١ ـ أن النظام العراقى مستمر فى ممارسة الكذب والغش والخداع ومحاولات التضليل فيما يتعلق بالكشف عن مخابىء الأسلحة وأماكن تصنيعها . ولقد استنتج الخبراء من ذلك أن النظام العراقى ما يزال مصرا على مواصلة تنفيذ مخططاته العدوانية . وهو الأمر الذى لا يمكن معه الوثوق بقدرة ذلك النظام على الوفاء بوعوده وتعهداته سواء فى الحاضر أو فى المستقبل .

٢ ـ أن ما تم الاعتراف به من جانب النظام العراقى أو ما تم التعرف عليه مباشرة بواسطة الدول الأخرى عبر وسائلها الخاصة حول كمية ونوعية أسلحة الدمار الشامل التى يمتلكها العراق أو تلك التى مازال يعمل على امتلاكها ، لا يمثل فى الواقع أكثر من النسبة التى يمكن للعين المجردة أن تراها من جبل الجليد . وهو الأمر الذى يعزز (فى رأى هؤلاء الخبراء) نفس المفهوم الذى توصلوا إليه فى الحقيقة الأولى ، ألا وهو توافر سوء النية وانعدام الثقة فى مصداقية النظام العراقى تماما ، علاوة على ما يشكله هذا النظام من خطورة على الأمن والسلام الدوليين .

وهكذا يتبين لنا بوضوح أن العدوان العراقى لم تنته فصوله بعد ، بل وقد لا تنتهى فى وقت قريب . إذ مازال الخطر ماثلا ومجسدا فى روح التربص الواضحة التى تنم عن الرغبة فى الانتقام . ولعل من دواعى السخرية هنا أن يكون الجانب المتربص والساعى للانتقام ليس هو الجانب المتضرر والمعتدى عليه (كما هو المتصور حسب ما يقتضيه منطق الأمور) ، بل إنه الجانب المعتدى نفسه . . .

وهذا يذكرنا بما كان يطلقه المراقبون والعديد من المحللين خلال أزمة العدوان العراقى على الكويت من تشبيهات ومقارنات بين صدام حسين وهتلر . ولعلهم كانوا محقين تماما فى التنبيه إلى وجود أوجه شبه عديدة بين

الشخصيتين ، حيث من المعروف أيضا أن هتلر ظل يتربص ويعد العدة ويجند الجند ويكدس الأسلحة حتى اكتمل استعداده وملأه الشعور بالقوة والتفوق ، وعندئذ لم يتردد لحظة فى اشعال فتيل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ، مدفوعا بمشاعر الحقد والكراهية والرغبة المجنونة فى الانتقام لهزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . وليس من شك فى أن معظم القراء ، الذين عاصروا منهم تلك الحرب أو الذين لم يعاصروها ، يعرفون بشكل أو بآخر ، ما سببه ذلك المعتوه من خراب ودمار ، ليس لشعبه فقط ، وإنما لبقية شعوب العالم كله . ويكفى أن نذكر هنا أن عدد القتلى والجرحى والمشوهين من جراء تلك الحرب ، (والتى تعتبر بدائية إذا ما قيست بإمكانيات وأسلحة وقتنا الحاضر) قُدِّر بأكثر من عشرين مليونا من البشر . . .

ولكننى أود قبل الاستطراد فى هذا الحديث ، أن أستعرض ملاحظة استباقية تتعلق بمضمون الحديث والغرض منه ، قبل أن يخطىء البعض فهم مقصودى أو يتعمد (أحدهم كالعادة) تفسيره بصورة ملتوية ليتهمنى بالكراهية والشماتة فى إحدى الدول (الشقيقة) ، باعتبار أن الحديث يحمل ضمنا معنى التأييد ، أو التعاطف مع وجهة النظر الدولية القائلة بأن (النظام) العراقى الحالى ، أثبت بالدليل المادى والقاطع ، أنه نظام شرير عدوانى وغير مؤتمن على حيازة أسلحة الدمار الشامل . وذلك لأنه نظام غير مسئول وعاجز عن ممارسة ضبط النفس والتحكم فى سلوكياته والسيطرة على أفعاله ، ومن ثم فإن من صالح أمن واستقرار الدول المجاورة له ومن صالح الأمن والسلام الدولى ، تجريده تماما من مثل هذه الأسلحة الخطرة ، حتى لايشكل بؤرة للتوتر الدائم ومصدرا للقلق والاضطراب فى هذه المنطقة وفى بقية مناطق العالم الأخرى .

إن مثل هذا الرأى عادة ما يجد فى الوجدان العربى تفسيرين مختلفين : أولهما تفسير عقلانى منطقى يرى أن له ما يبرره من واقع التجربة العملية والبرهان ، ممثلا فى خوض النظام العراقى حربا لا داعى لها لمدة ثمانى سنوات متصلة ، ثم قيامه بعدوان لا يبرره عقل أو منطق ولم يردعه وازع من خلق أو ضمير على جارته الكويت ومحاولته ابتلاع هذه الدولة العضو فى هيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية . جاهلا أو متجاهلا أن مثل

هذا الأسلوب من القرصنة الدولية ربما كان مقبولا فى عصور سابقة.ولكنه لا يمكن قبوله أو التسامح إزاءه فى عصرنا الحاضر ، وأيضا لتحديه الفج للشرعية والتحالف الدولى .

أما التفسير الثانى فيرى (جهلا ، أوخبثا فى معظم الأحيان) أنه لا يجوز تحت أى مبرر (. . . .) أن يتخذ شخص عربى أو دولة عربية موقفا مساندا أو قرارا مؤيدا لوجهة النظر القائلة بحرمان أى بلد عربى (وهو فى حالتنا هذه بالطبع العراق) من امتلاك الأسلحة التى يمكن أن تعدل موازين القوى المائلة بشدة إلى جانب إسرائيل وتعتبر طريقنا الوحيد لاسترداد حقوقنا واستعادة كرامتنا المهدرة . خاصة وأن إسرائيل نفسها تمتلك مثل هذه الأسلحة منذ زمن غير قصير .

والذى لا يعرفنا يأخذه العجب وتتملكه الدهشة لمثل هذا الحكم الذى يخلط بين الواقع والخيال (الواقع ممثلا فى امتلاك العراق فعلا لأسلحة الدمار الشامل ، والخيال فى استخدام هذه الأسلحة لتعديل موازين القوى بينناوبين اسرائيل وتسخيرها فى استعادة الحقوق واسترداد الكرامة) ، وهو ما يؤكد بما لا يدع مجالا للشك عجز صاحبه عن رؤية الأمور بصورتها الحقيقية وحجمها الطبيعى كما هى فى الواقع لا كما هى فى خياله أو كما يتمنى لها أن تكون . . أما أولئك الذين يعرفوننا جيدا فإنهم لا يجدون فى الأمر ما يثير العجب أو يبعث على الدهشة ، باعتبار أن هذا هو أسلوبنا فى التفكير ومنهاجنا فى التحاور (خاصة حول الأمور المشتركة بيننا) .

ومن هنا كانت ملاحظتى الاستباقية هذه والتى وددت من خلالها القول بأننا لن نحقق على وجه التأكد لا الظن ـ خطوة واحدة على طريق التفاهم الأخوى أو التعاون العربى والتطور الفكرى والسياسى والاقتصادى والحضارى بوجه عام ، مالم نقلع عن الخلط بين الواقع والخيال ونتعلم كيف نجعل حركتنا أفعالا وليست مجرد ردود أفعال ، وآراءنا قائمة على أسس عقلية منطقية لا عاطفية انفعالية . ولن يتأتى لنا هذا بالطبع إلا إذا اتسمت محاوراتنا ومناقشاتنا حول امورنا الهامة والمشتركة بالجدية والصراحة والموضوعية . بل وقبل كل ذلك بالقدرة على ممارسة النقد الذاتى والاعتراف بأننا نصيب ونخطىء مثل غيرنا ، ولكن المهم أن تكون لدينا الشجاعة للاعتراف بأخطائنا ومن ثم الاستعداد لمواجهتها وإصلاحها .

وهكذا نستطيع العودة لمناقشة موضوع تجريد العراق من أسلحته النووية والكيميائية والجرثومية انطلاقا من هذا المفهوم . وليكن ذلك من خلال الاجابة عن سؤال علمى يطرح نفسه هنا بإلحاح هو . هل من الممكن أن نحصل على نتائج إيجابية لمعادلة رياضية أو كيميائية أو فيزيائية إذا كانت معطياتها الأولى أو مقدماتها خاطئة ؟ . أعتقد أن الإجابة لابد وأن تكون بالنفى . وكذلك فإن معادلة تحقيق القوة العربية لا تكون صحيحة إذا لم تكن المقدمات التى قامت عليها صحيحة هى الأخرى .

ومن المعلوم أن معادلة القوة العربية التى يتعين علينا دعمها ومساندتها (وتمثلها فى حديثنا هذا القوة العراقية والأسلحة العراقية) تقوم على أساس أن هذه القوة تشكل الدرع الذى يحمى أراضينا ويدافع عن مصالحنا ويصون كرامتنا واستقلالنا ويدعم حريتنا ويجعل إسرائيل تفكر ألف مرة قبل أن تتمادى فى عدوانها علينا حتى يتوفر لنا الأمن والاستقرار اللازمان لتنفيذ برامجنا للتنمية والتقدم . ولقد كان هذا هو أساس ما قمنا به فعلا من واجب تجاه العراق عندما قدمنا له كل عون مستطاع أثناء بنائه لهذه القوة وكذلك فعلت الكويت . بل ولقد ذهبنا إلى أبعد من ذلك كثيرا عندما قامت إسرائيل بتدمير المفاعل النووى العراقى ووقف النظام العراقى عاجزا بغير حيلة فأعلنت المملكة على لسان قائدها خادم الحرمين الشريفين استعداد المملكة لتحمل نفقات إعادة بناء المفاعل من جديد . ولم يكن هذا الالتزام العلنى وأمام العالم كله ماديا فقط وإنما كان التزاما أدبيا ومعنويا أيضا يهدف إلى إشعار القاصى والدانى بأن العراق لن يكون وحده فى مواجهة أى عدوان يستهدفه .

إذن فلابد وأن نسأل أنفسنا هنا أولا عن مدى انطباق هذه الشروط ، أو هذا الافتراض ، على معادلة القوة العراقية والسلاح العراقى . أو بمعنى آخر أكثر وضوحا وأكثر تحديدا ، هل استخدم النظام العراقى قوته الهائلة هذه وزخم أسلحة الدمار الشامل التى يمتلكها لدعم ومعاونة العالم العربى ضد العدوان الشرس للأمة العربية ؟ وهل هناك من سمع بأن النظام العراقى خاض (منفردا أو مشتركا مع غيره) حربا أو حتى معركة واحدة بقصد تحرير فلسطين أو إجبار اسرائيل على تخفيف حدة ممارساتها غير الإنسانية ضد شباب الانتفاضة ، أو لإرغامها على الذهاب لمؤتمر السلام أو قبول أى من

الحلول السلمية العديدة المعروضة عليها من كل الجهات وبجميع الصيغ ومختلف اللغات ؟ . .

إن الأجابة بالنفى على هذا السؤال تكفى بحد ذاتها لاثبات خطأ الفرضية الأساسية لمعادلة القوة العراقية ، حيث لا يستطيع أحد بالطبع سواء فى عالمنا العربى أو فى أى مكان آخر فى العالم كله ، الادعاء بأن السلاح العراقى كان يوما فى خدمة القضايا العربية المعاصرة أو مدافعا عنها . ومن ثم يسقط الطرف الثانى فى المعادلة والذى يرتب للنظام العراقى حقا فى أن نقف بجانبه ونظاهره فى الدفاع عن سلاحه .

وإذا انتقلنا إلى الحقيقة الثانية والقائلة بأن السلاح العراقى لم يكن فقط محايدا بالنسبة للقضايا والمصالح العربية ، وإنما كان حربا عليها معتديا وغاصبا وطامعا بالشكل الذى رأيناه ولمسناه خلال عملية محاولته ابتلاع الكويت وممارسته شتى أشكال البلطجة والتهديد بالاجتياح لبقية دول الخليج العربية . فهنا نجد أن المعادلة قد انقلبت رأسا على عقب ، بحيث أصبح الأمن العربى واقعا تحت تهديد مباشر من السلاح العراقى بدلا من أن يكون فى حمايته .

وهكذا يكون قد أصبح واضحا لنا أنه يكون ضربا من البلاهة والخبل أن ندافع عن بقاء السلاح الذى أنزل بأمننا واستقرارنا واقتصادنا وسمعتنا من الأضرار مالم تنزله بنا أى قوة أخرى فى المنطقة أو حتى فى العالم كله . وذلك بغض النظر طبعا عما يدعيه المغرضون والمضللون ومحترفو تزييف الحقائق (من سياسيين أو إعلاميين) . فكما يقول مثلنا الشعبى ما يحس بالجمرة إلا واطيها □

وحسبنا الله ونعم الوكيل . .

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب
٨٢٨٠ / ١٩٩١

مطابع الأهرام بكورنيش النيل